

موسوعة الأمن والاستخبارات في العالم

تأليف د. صالح زهر الدين

ملف الاستخبارات السوفياتية

منتدى اقرأ الثقافي

www.iqra.ahlamontada.com

موسوعة
الأمن والاستخبارات في العالم

د. صالح زهر الدين

ملف الإستخبارات السوفياتية

الجزء الثالث

المركز الثقافي اللبناني

المركز الثقافي اللبناني

للطباعة والنشر والتأليف والترجمة والتوزيع

بيروت - هاتف: ٥/٤٦٧٧٧ - ٥/٤٦٧٨٨ - ٢/٧٥٣٦٢

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

٢٠٠٣

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال
بدون إذن خطي من الناشر.

ملف الاستخبارات السوفياتية

المخابرات السوفياتية وأسرار نشوئها وتطورها وتفوقها

- ١ -

عندما كانت مؤسسة «المخابرات» من أهم المؤسسات والدعائم التي تقوم عليها الأنظمة كان لا بد من ايلائها ما تستحقه من اهتمام على المستوى الذي يكفل للنظام ديمومته وبقاؤه واستمراره. وعلى هذا الأساس، ومنذ ظهور الاتحاد السوفياتي الى الوجود، اعتبر زعماءه أن الجاسوسية بأية صفة وشكل، هي من أهم الأسلحة التي يعتمد عليها، وبالتالي فقد فعلوا كل شيء من أجل انشاء منظمة من شأنها أن تتفوق على أية دائرة استخبارات في العالم. وقد أصبح هذا الهم الاستخباراتي على رأس لائحة الهموم الكبرى التي كانت تمثل هاجساً عظيماً لزعماء الكرملين. ومن خلال ذلك أصبح بمقدور الاتحاد السوفياتي أن يدعي عن حق وحقيق بأنه يملك أضخم وأكفأ شبكة جاسوسية في العالم، حيث لم تبق بقعة صغيرة لا يصل إليها نور الشمس، إلا وللسوفييات وجود فيها. وقد تمكنوا من التغلغل في أدمغة العالم الحر وتلاعبوا بأعصابه وشرائبه حتى أصابه ما يشبه الهستيريا.

فما هو سر المخابرات السوفياتية؟ وكيف وصلت وتربعت على العرش الاستخباري في العالم؟.

تقوم في ميدان «كالجيف» دار ذات ثلاث طبقات وباب صغير من المرمم تجاور مبنى مجلس الشيوخ القديم، وقد بنيت في عام ١٧٧٥ وبها حديقة غناء مزدانة بالأزهار الجميلة، وتطل نوافذها على مناظر طبيعية فاتنة، وهذه الدار تؤلف مركز أكبر هيئة جاسوسية في العالم، وإن كان مظهرها لا

يدل على هذا. وهي دار هادئة محفوفة بالغموض كالذين يعملون فيها،
وبعيدة عن حركة المرور وعلى نحو نصف ميل من وزارة الداخلية.

وقد اختار هذه الدار «فياشيسلاف رود ولفوفيتش منزينسكي» الذي كان
شاعر منظمة المخابرات السوفياتية المعروفة بـ «التشيكا» لتكون مكتبه الخاص
بعد أن قرر الانتقال من لوبينكا. وكان مكتبه هذا أشبه بصالون حافل بالتماثيل
واللوحات الفنية. وكان يكتب بالقلم ذاته ترجمة الأشعار الفارسية ويوقع به
أوامر القتل لموظفيه.

في هذا المبنى بالذات كانت تعد الخطط ومنه ترسل الجواسيس وتحاك
المؤامرات، وترسم السياسات.

وفي عام ١٩٢٧، وفي شهر مايو تحديداً قام ٨٣ من زعماء الهيئات
المعارضة من التروتسكيين اليمينيين باتهام ستالين بخيانة تعاليم لينين،
وأخذت المعارضة تستغل «وضعية لينين» التي لم تنشر وتتلعب بها. وقد أدرك
ستالين أنه لا يمكنه أن يواجه هذا التحدي وينقذ مركزه إلا بقرارات جريئة
يتخذها إزاء المعارضة داخل الاتحاد السوفياتي وفي ميدان السياسة
الخارجية.

وقد عمد ستالين في المؤتمر الخامس عشر للحزب الشيوعي الذي
انعقد في شهر كانون الأول/ديسمبر من ذلك العام الى الكشف عن محتويات
(الوصية) وهي عبارة عن خطابات بعث بها لينين وهو على فراش المرض في
عام ١٩٢٣ وقال فيها: «ان ستالين ليس الشخص اللائق لزعامة الحزب ولا
الذي يصح تعيينه سكرتيراً عاماً للحزب». ولكنه انتقد مطامع تروتسكي
وانحرفه عن المسلك البلشفي. وهكذا نجحت مقامرة ستالين وتم القضاء
على المعارضة بفضل تأييد الوفود لفكرة ابعاد تروتسكي من الحزب. ولم
تكد تمضي ثلاثة أسابيع حتى أرغم المنافس الخطير الوحيد لستالين على
الذهاب الى المنفى. وتمت السيطرة على الأزمة الداخلية في ذلك الوقت،
وقرر ستالين أن الوقت حان ليتولى قيادة «التشيكا» ويحيلها الى أداة لتثبيت

قوته الشخصية. وأصبح «للتشيكا» رئيس جديد واسم جديد، فقد مات «دزريينسكي» فجأة في عام ١٩٢٦ وخلفه وكيله «فياشيسلاف مريينسكي» وهو كسلفه ينحدر من أسرة بولندية من أصحاب الأملاك. ويبدو في مظهره مترهلاً واهن القوى. وكان يستقبل زائريه وهو مستلق على أريكة مغطاة ببطانة من الحرير الصيني. وكان لينين يطلق عليه «مريض العصبي المتدهور». ولكنه كان يعلم أن هذا المظهر يخفي الكفاءات والمؤهلات التي يحتاج إليها المدير الناجح للبوليس السري، وهي تلك التي كان يتمتع بها مؤسس المخابرات السوفياتية «دزرجينسكي».

ولم يكن منزينسكي كبير الاهتمام بالمخابرات السرية الأجنبية، فترك تفاصيل أعمالها لموظفيه. ولكن ستالين رأى أن الخدمة السرية في الخارج تحتاج إلى توجيه أكثر نشاطاً، فأحدث التغييرات اللازمة بما جبل عليه من مهارة ومكر. فعقد منزينسكي بإيعازه اجتماعاً لرؤساء أقسام الخدمة السرية، وألقى تريليس رئيس القسم الخارجي كلمة في المجتمعين اعترف فيها بحوادث الفشل التي أصيبوا بها، وقدم مشروعاً لإعادة تنظيم شبكاته وانشائها في عواصم العالم، وعرض أسماء «رفاق متالفين» قدموا خدمات جليلة في مهمات صغيرة واقترح ترقيةهم إلى مناصب رئيسية في إدارة الشبكات التي لم ينفضح أمرها إلى ذلك الوقت والتي يمكن توسيع نطاقها.

وقدم منزينسكي بعد ذلك شاباً كان إلى ذلك الوقت جالساً يصغي في صمت ولا يقول شيئاً، ولم يكن عضواً في القسم الأجنبي ولم يكن بعض الحاضرين يعرفون حتى اسمه. وقيل لهم أنه الرئيس المساعد لقسم شاشتني اوديل وهو قسم تابع للتشيكا ومختص بالإشراف على الرعايا السوفيات والأمن الداخلي.

وليس من شك أن بعض رؤساء الأقسام المثقفين ذوي الأجور العالية نظروا بسخط واشمئزاز إلى ذلك الشاب الذي كان يرتدي زي العمال الكالاح اللون وآيات الغباء تظهر على سحته. ولكن برغم نظرهم له وفكرتهم الأولى

عنه لم يسعهم إلا الإصغاء باهتمام عندما قدمه منزينسكي بقوله : «الرفيق غنبريك غريغور يفيتش ياغودا الذي يحبه ايفان فاسيليفيتش (وهو الاسم الذي يطلقه عادة أعضاء التشيكا على ستالين) ويثق به كل الثقة». وربما ظهر ياغودا بمظهر الغباء ولكنه سرعان ما أظهر قوته عندما قال : «ان ستالين غاضب وقد استقر عزمه على وجوب وضع الأمور في نصابها فقد حدثت مأس بسبب أخطاء الأفراد لا الهيئات ولم يعد ثمة مكان للذين يرتكبون الخطأ». ثم أخذ القائمة التي أعدها تريليس بالتعيينات الجديدة وشطب عدة أسماء منها. وأضاف يقول : «ان هناك بعض أشخاص سيعينون في مناصب هامة في الخارج»، وكان لافرنتي بيريا من بين هؤلاء.

وينحدر ياغودا من فلاحى لاتفيا، ولم يعرف عنه أنه دخل مدارس. ولم يكن يعرف الخطابة. ولهذا كان حتى في أوج قوته يخجل من هذا النقص. وقد قال تروتسكي : «الظاهر أن هناك سراً يربط ستالين بياغودا الى الأبد».

وأصبح ياغودا نائباً لمنزينسكي، وأدخلت بعض التغييرات في وسيلة المخابرات. وقام الكومترن خلال السبعة عشر عاماً التي تولى خلالها دزرشينسكي ومنزينسكي إدارته بدور هام في تنظيم الجاسوسية الأجنبية. وكان الكومترن يعتمد الى حد كبير على أهل البلاد التي يعمل فيها، ولكن ياغودا أصدر أمره بأن يكون جميع المديرين المقيمين من الروس، وألا يعمل الجواسيس في مواطنهم على الإطلاق. فالألماني لا يجب أن يستخدم في ألمانيا ولا البريطاني في بريطانيا. والغرض من هذا كما قال ياغودا هو التوصل عند الانقضاء. اذ يمكن عندئذ أن يصدر نفي رسمي بأن روسيا لا تعرف هذا الشخص. كما يمكن أن يوعد بأن الألماني الذي يعتقل في فرنسا كان يتجسس للجيش الألماني، وأن يقال عن الفرنسي الذي يضبط في إيطاليا أنه يعمل لحساب المكتب الثاني الفرنسي وغير ذلك. وبهذه الوسيلة الماكرة يمكن استخدام الافتضاح في بذر بذور الشقاق بين الأعداء المشتركين.

ولم يكن هذا الإجراء من الناحية العملية يدعو الى الإرتياح. ولكنه كان يتمشى مع الخطة التي ترمي الى نقل الإشراف التام على الجاسوسة الى «التشيك»، وإن استمر الكومنترن يقوم بدور كبير في التجسس تحت إدارة التشيك. وقد ظل هذا الحال حتى الى ما بعد تولي ياغودا الإشراف على التشيك عقب وفاة منزينسكي في ملابسات غامضة خلال عام ١٩٣٤ (وقد اتهم ياغودا في عام ١٩٣٦ بأنه قتل منزينسكي وغوركي بالسّم واعترف بذلك). وعاد الكومنترن الى سلطته بعد الحرب العالمية الثانية عندما عاود الظهور باسم الكومنفورم برئاسة «جدانوف» الذي قام هو ببعض أعمال التجسس على التجارب الذرية. ولم يكن «بيريا BERIA» راضياً عن هذا النشاط. ولم تتمكن التشيك من استعادة سلطانها وإشرافها بلا منازع إلا بعد وفاة «جدانوف» فجأة.

وكان الفضل لياغودا في انتقاء أربعه من خيرة جواسيس روسيا، وذلك خلال الفترة التي كان يعمل فيها نائباً لمنزينسكي. وهؤلاء الجواسيس هم «جورجي ديميتروف ولافرنتي بيريا، وغيرهارد ايسلر، وريتشارد سورج» كما اكتشف ثلاثة من منفذي أحكام القتل وهم «جورج منيك. وأندرية سيمون وأرنست ويلوبر». وربما كانت أعظم خدمة أداها للمخابرات السرية السوفياتية خلال هذه الفترة هي طريقة تمويل أعمال التجسس بالتزوير. فقد كان مشروع الخمس سنوات الأولى الذي نفذ في عام ١٩٢٩ يحتاج الى مشتريات كبيرة من الخارج يدفع ثمنها بالعملات الأجنبية أو بالذهب. وكانت التشيك أيضاً مفتقرة الى المال لتدفع أجور المديرين والمقيمين والعملاء في الخارج. ولهذا أعد مشروع للحصول على المال اللازم بالتزيف. ويغلب على الظن أن يكون «ميرونوف» من هيئة القسم الاقتصادي هو الذي وضعه، وتولى ياغودا تقديمه الى ستالين الذي وافق عليه وأخرج قسم التزيف في التشيك أوراق نقد من فئة مائة دولار أجيد تزيفها الى حد يكاد يصل الى الكمال. وعهد بيريا بتنظيم توزيعها، وقد استخدم في ذلك شيوعياً في برلين يدعى «فرانز فيشر» افتتح مكتباً للإستيراد والتصدير في شارع «نيو ونتر فيلد» وأطلق على نفسه اسم

«الهر سيمون» وادعى أنه من النمسا ويشغل بالمضاربات في البورصة. ولم يحد صعوبة في شراء بنك «ساس ومارتيني» الذي تأسس في عام ١٨٤٦ وكان يتمتع بسمعة محترمة. وبعد أن تزود «فرانز» بالتعليمات والأوامر من موسكو عاد الى برلين وتسلم أوراق النقد الزائفة وتولى «بنك ساس ومارتيني» إيداعها في «دويتش بنك».

وكان صرافو بنك «الفيدرال ريزرف» في نيويورك أول من اكتشف التزييف وذلك في كانون الأول/ديسمبر من عام ١٩٢٩. ولكن مضت شهور قبل أن تؤدي التحريات الى معرفة مصدر هذه الأوراق وهو بنك «ساس ومارتيني». وعندئذ اختفى فيشر وموظفوه وكانوا جميعاً من أعضاء هيئة الجاسوسية في برلين. وقد صادفت هذه العملية نجاحاً كبيراً حيث ظلت الأوراق الزائفة متداولة خلال عام ١٩٣٠ في مختلف ربوع العالم. وكان بنك «الفيدرال ريزرف» يكتشفها عندما تصل اليه. وقد قال «كريفيتزكي» المدير المقيم في فيينا أن نحو عشرة ملايين دولار من الأوراق الزائفة استبدلت بعملة صحيحة ولم يقبض إلا على عدد ضئيل من العملاء في هذه المؤامرة.

وأوقفت هذه العملية في العام ذاته. ولكن بعض العملاء الذين اشتركوا فيها احتفظوا بكميات كبيرة من الأوراق الزائفة لاستخدامها لمنفعتهم الشخصية وأخذوا بعد ذلك يدخلون في عمليات مع المهربين الأميركيين على أساس تقاسم الأرباح مناصفة. وقد كشفت محاكمة الدكتور «فانتين غريغوري بورتان» أحد أطباء نيويورك في عام ١٩٣٤ بتهمة ترويج دولارات ورقية زائفة عن قصة مثيرة أثبتت أن رجال العصابات كانوا يعملون بالاشتراك مع رجال المخابرات السرية السوفياتية. وقد سجن الدكتور بورتان ولكنه لم يعترف بالمصدر الذي أخذ منه أوراق النقد الزائفة من فئة المائة دولار التي أعطاها لرجال العصابات في مقابل التنازل لهم عن ٣٠ في المائة من قيمتها.

ولكن كريفيتزكي لم يلبث بعد بضع سنوات أن أبلغ إحدى لجان الكونغرس أن بورتان كان معروفاً للشيكاف باسماء مستعارة منها «فرانك ييلي»

و«ادوارد كير» و«بورتسين» و«بيل».

والظاهر أن الرأس المفكر الحقيقي وراء هذه العملية كان «غيرهارد ايسلر» الذي كان يعمل وقتئذ في برلين وقد أرسل أوراق 'النقد الى الولايات المتحدة مع «نقولا روزنبرغ» من أهل البوسنة. وكان يعمل في انتاج الأفلام في هوليوود. ولكن قسم المباحث الجنائية أخذ يهتم به عندما أنشأ «الشركة الاميركية الرومانية للأفلام» في بوخارست لتكون مركزاً لعمله في البلقان. واعتقل بورتان ولاذ روزنبرغ بالفرار من نيويورك وذهب الى ايسلر الذي كان عندئذ في براغ وحمله على إقناع التشيكا بتخصيص مبلغ كبير من المال للدفاع عن بورتان. ولكن هذا الدفاع لم ينقذ بورتان من حكم بالسجن أمداً طويلاً.

مات منزينسكي في ١٠ / ٥ / ١٩٣٤ وتولى ياغودا الإشراف الأعلى وكانت إعادة تنظيم «الغيبو» الذي ظفر اسمه بالشهرة التي تمتعت بها التشيكا في عام ١٩٢٢ قد أعدت بالتفصيل قبل وفاة منزينسكي ونفذت بلا إبطاء. ولم تكن جميع التغييرات الجوهرية من تفكير ياغودا وحده، وإنما كان مصدرها ستالين وساعده الأيمن «جورجي مكسيميليان نوفيتش-مالنكوف» السكرتير الخاص لستالين الذي أصبح فيما بعد أقرب مستشاريه. وقد ألغيت الإدارة السياسية للدولة وانضمت أقسامها وأكثر المكاتب الباقية من الكومنترون الى «النكفد» أي قوميسيرية الشعب للشؤون الداخلية التي لم تكن في الواقع غير «تشيكا» أكفاً تتبع أساليب أحدث. وجرد الكومنترون من جميع النفوذ الإداري في الخدمة السرية. فقد انتقل هذا النفوذ الى المكتب المركزي لأمن الدولة الذي يضم إدارات للمخابرات السرية وانقسم أيضاً الى عدة أقسام وأنشئت أيضاً ستة مكاتب مركزية أخرى وفرت لوزارة الداخلية الإشراف التام على جميع المخابرات السرية وشؤون الأمن. وظفر المكتب المركزي لأمن الدولة بالإشراف التام على كل شيء حتى وإن كان بعيد الصلة بالجاسوسية ومناهضة المخابرات السرية. أما الوسيلة القوية لإعادة التنظيم التي كان لها الفضل في

ذلك الطراز من قوات الأمن الموجودة الى يومنا هذا فقد تأيدت بسلسلة من المراسيم أصدرتها فيما بين ١٠ يوليو و٥ تشرين الأول/ اكتوبر سنة ١٩٣٤ اللجنة التنفيذية المركزية ووقعها الرئيس كالينين ولا تزال هذه المراسيم معمولاً بها وإن أدخلت بعض التغييرات على الخدمة السرية خلال عهد بيريا.

واستمر حكم ياغودا عامين الى أن اعتقل في شهر يوليو سنة ١٩٣٦ عندما أمر ستالين بتعيين «نيكولاي يزهوف» سكرتيراً للجنة المركزية ليتولى إجراء حركة تطهير بين البلاشفة ورجال الشيكا القدامى.

المخابرات السوفياتية وأسرار نشوئها وتطورها وتفوقها - ٢ -

بعد أن تغلغلت الاستخبارات الروسية في جسد العالم الحر، وشكل هذا التغلغل خطراً هدد جميع أعضائه، احتارت دوله العظمى خاصة في كيفية توجيه ضربة مؤلمة لنظام «الجيش الأحمر» الذي يهدم القيم البشرية ويفسد الانسان على حد قولهم. وهذا ما دفع «ونستون تشرشل» الى اثاره هذه النقطة بالذات في مجلس العموم البريطاني خلال عام ١٩٤٦ عندما قال: «ان كثيراً من الدول تسعى للحصول على معلومات عن شؤون الدول الأخرى، ولكن الفرق بين النظام السوفياتي وغيره من النظم هو أن الناس في البلدان الشيوعية يدينون بمبدأ التضحية بوطن الانسان في سبيل وصول الشيوعية الى مثلها الأسمى». وعندما كانت الجاسوسية بطبيعتها تقتضي المكر والدهاء والفرن والخيانة وعمل أشياء في الخفاء لا يمكن اتيانها علناً، إلا أن المخابرات السوفياتية تفوقت على سائر مخابرات الأرض في كل هذه القضايا مجتمعة. وكان لابد إزاء ذلك من تجنيد أمهر جواسيس الأعداء وأكفأهم للنفاذ الى داخل هذه المؤسسة السوفياتية التي تحاط بهالة من الغموض والأسرار ليس من السهل مطلقاً سبر غورها والوصول الى خفاياها المليئة بالألغاز. وهذا ما حدا بالصحفي البريطاني «كوكريديج» - الذي اشتهر بكتاباته في الشؤون السياسية، وكان من عملاء المخابرات السرية - الى الكتابة عن تاريخ أغرب نظام جاسوسية عرف في التاريخ، ويعتبرونه حجة في شؤون روسيا السوفياتية خاصة بصدد الصراعات التي كانت تعيشها بلاد الروس من الناحية السياسية وانعكاساتها على التشيكا.

ومن هنا يقول «كوكريديج» بأن حكم «غبريك باغودا» استمر عامين الى أن انتقل في شهر تموز يوليو ١٩٣٦ ، عندما أمر ستالين بتعيين «نيكولاي يزهوف» سكرتيراً للجنة المركزية ليتولى إجراء حركة تطهير بين البلاشفة ورجال «التشيكا» القدامى . وتم في عهد يزهوف تعيين ثلاثمائة شخص من الرؤساء والموظفين والعلماء في جميع الإدارات والأقسام المهمة . وتم تطهير الشبكات الأجنبية من كل شيوعي قد يعد عدواً ولو من بعيد لحكم ستالين وإشرافه التام . واختفى في الواقع آخر البلاشفة القدامى وشهد العامان اللذان قضاهما «يزهوف» في الحكم «حماماً من الدم» هلك فيه عدد كبير من خيرة أصحاب العقول في التشيكا . ولكن التركيب البيروقراطي لهذه الهيئة وضخامة حجمها مكّناها من الصمود أمام هذه المحنة كما صمدت لحركات التطهير الأخرى . وكان الأعضاء الجدد الذين حلوا محل من تناولتهم (التصفية) أو الذين أرسلوا الى معسكرات العمل يختلفون الى حد كبير عن القدامى . فهم صغار السن ولم يشتركوا في عهد ما قبل الثورة ولا يعرفون عنه ولا عن الأفكار التي كانت سائدة فيه ، شيئاً . ولكنهم دربوا تدريباً كبيراً على أعمال المخابرات والتجسس .

ومن بين العوامل التي مكنت الجاسوسية الأجنبية السوفياتية من الاحتفاظ بكفاياتها برغم الهزات الداخلية، عهد ما بعد الأزمة الاقتصادية العالمية التي قامت في سنة ١٩٢٩ واستمرت حتى عام ١٩٣٢ . وكذلك قيام هتلر النازي والحرب الأهلية الأسبانية فقد أدت متاعب الأزمة الاقتصادية وحالات الفشل الظاهر للنظام الرأسمالي ، أدت بكثير من المتعلمين في أوروبا والولايات المتحدة الى الإنقياد للعلماء السوفييات الأكفاء الماكربين . وقد استغل قيام هتلر والخوف من الفاشية الى أقصى حدود الاستغلال ، فأخذ الملايين يتطلعون الى الاتحاد السوفياتي غير مدركين أن فيه حكماً مطلقاً . كما في ألمانيا لا تتردد المخابرات السرية في التعاون مع قواده اذا وجدت ذلك مجزياً - على حد قول «كوكريديج» - .

وقامت الرابطة بين العسكريين الرجعيين الالمان بل وبعض زعماء النازي ،
وهيئة أركان الحرب السوفياتية والتشيكا - كما يقول كوكريديج بإشارة من أسياده
البريطانيين - وقد نصح قواد الجيش الأحمر وبعض زعماء الكرملين في عام
١٩٢٠ وما بعده بالتحالف مع المانيا لأنهم كانوا يعتقدون أن في امكان روسيا
والمانيا، الأمتين الناهضتين أن تقضيا على الرأسماليين والاستعماريين
الغربيين . والواضح أنه كانت تقوم وراء هذه السياسة فكرة مفادها أنه اذا تم
النصر على الغرب أصبح في الإمكان «تكييف» الشعب الالمانى بحيث يقبل
الشيوعية ، وبهذا يتيسر إقامة حكم سوفياتي في وسط أوروبا.

وكان الجيش الالمانى الذي تولى الجنرال «فون سيكت» تدعيمه
وتنظيمه الى حد يدعو الى الاعجاب منذ عام ١٩٢١ مخالفاً بذلك نصوص
معاهدة فرساي ، يتزود بالأسلحة من الجيش الأحمر . وظل كذلك بضع
سنوات حتى بعد قيام النازيين وتسلمهم السلطة في المانيا . ولكن
«كريستنسكي» السفير السوفياتي في برلين وخليفته «فيتشوك» الذي كان مندوباً
تجارياً سوفياتياً في لندن ومنظم شبكة أركوس للتجسس ، ظلا يقومان بالتآمر
مع الملكيين الألمان وهم «اليونكر» البروسيون والطغمة العسكرية المحيطة
بالجنرال «فون شليخر» والجنرال «فون هاوستين» . وكان مندوب المخابرات
السرية السوفياتية في هذه التحالفات الغربية «هانز كييتيرغ» الذي كان زعيماً
لثورة بحارة هامبورغ وأصبح فيما بعد عضواً في الرايخستاغ وتولى منذ عام
١٩٢٨ منصب كبير جواسيس التشيكا في «الشؤون السياسية العسكرية
الالمانية» وعمد الجنرال «بوتنا» الملحق العسكري الروسي في برلين الى
توثيق صلته بالجنرال «فون بريدو» الخبير بشؤون روسيا في هيئة الأركان العامة
الالمانية . ومن بين زعماء النازي الآخرين الذين اشتركوا في المؤامرة الكابتن
«أرنست روهم» و«غريغور ستراسر» كما ظهرت فيما بعد أدلة أن «هرمان
غورنغ» كان مشتركاً أيضاً في المؤامرة .

وعندما أصبح «فون شليخر» مستشاراً لألمانيا في ٢ كانون الأول/ديسمبر

١٩٣٢، تبين أن جهود الخدمة السرية السوفياتية قد أوتيت ثماراً. ولكن لم يكد ينقضي شهران حتى شق هتلر طريقه وأصبح مستشاراً للدولة ضد رغبة الجيش وأوساط الجناح الأيمن فانهارت خطة التعاون السوفياتي الألماني. على أن ستالين عاود هذه السياسة بعد ستة أعوام عندما تم توقيع ميثاق ريبتروب - مولوتوف في موسكو الذي نصّ ليس فقط على التعهد بعدم الاعتداء، وإنما على توثيق أواصر الصداقة أيضاً بين ألمانيا والاتحاد السوفياتي.

هذا وتشير المخابرات البريطانية على لسان عميلها السري «كوكريدج» الى أنه «مع أن هذه الخطة كانت تمثل سياسة ستالين الشخصية إلا أن الأشخاص الذين عهد اليهم بهذه المهمة الشاقة الخاصة بتحقيق التعاون بين السوفيات وألمانيا في عام ١٩٣٠ وما بعدها عوملوا بعد ذلك كخونة».

وفي عام ١٩٣٧، اتهم الجنرال «بوتنا» - الملحق العسكري السوفياتي في برلين - هو والمارشال «توخاشفسكي» وستة قواد آخرين برتبة جنرال بالخيانة العظمى والتعاون مع النازي، ونفذ فيهم حكم الإعدام.

واستدعى «كيبيرغ» الى موسكو وقتله رجال التشيكا بالرصاص. ولاقى بعض معاونيه المصير ذاته. وكان هتلر أيضاً قد تخلص من «أصدقاء التعاون السوفياتي الألماني» وهلك «أرنست روهم» و«غريغور تتراسر» و«الجنرال فون شلينخر» في «ليلة السكاكين الطويلة» ونجح غورنغ في تبرئة نفسه ولكن هتلر لم يثق به بعد ذلك.

وفي عام ١٩٣٨ اختفى «يزهوف». والمعتقد أنه توفي بعد ذلك في إحدى المستشفيات وخلفه «لافرتي بافلوفيتش بيريا BERIA» وكان في الواقع خيز من تولى شؤون الخدمة السرية السوفياتية خلال السبعة والثلاثين عاماً التي زاولت خلالها نشاطها.

ولد بيريا في «تفليس» سنة ١٨٩٨ وكان كستالين من أهل جورجيا. وكان والده موظفاً صغيراً انحدر من أسرة من المزارعين. وكان أمل بيريا أن

يصبح مهندساً معمارياً ولكن الأسرة كانت مع هذا على شيء من البجوحة فدخل كلية المعلمين ثم انضم الى الجيش القيصري في الحرب العالمية الأولى ولكنه لم يرسل الى الجبهة بسبب ضعف بصره. ويقول بيريا عن نفسه أنه كان ثورياً منذ أول شبابه وحرص جنود وحدته على التمرد فاعتقل وحوكم أمام مجلس عسكري حكم عليه بالإعدام ففر الى الجبل وانضم الى الثوار من أهل جورجيا وأصبح زعيماً لهم في عام ١٩١٧ كما أصبح في ثورة أكتوبر - (تشرين الأول) ١٩١٧ زعيماً صغيراً لعمال الزيت في باكو. وقد لاذ بالفرار بعد هزيمة الجيش الأحمر أمام الجيش الأبيض في عام ١٩١٩ تاركاً القوقاز تحت رحمة العناصر المناهضة للشيوعية. وقد استخدم في هربه جواز سفر مزيفاً باسم «فانوداهيشفيلي»، ووصل الى «أومسك» في سيبيريا بعد رحلة محفوفة بالأخطار وسط البراري والقفار، وقابل في سيبيريا أسرى الحرب المجرين الذين حررهم البلاشفة وعقد أواصر الصداقة مع كرواتي يدعى «جوزيف بروز» الذي أصبح بعد عشرين عاماً شخصية مرموقة في العالم حيث يعرف باسم المارشال تيتو. وعاد الى القوقاز لينضم الى الحملة التي انتهت بهزيمة الجيش الأبيض وعمل في المخابرات السرية، وتخصص في تهريب جنود ادعوا أنهم فارون من الجيش الأحمر لينضموا الى الجيش الأبيض بقيادة الجنرال «دنيكين». وقد وصلت أنباءه الى موسكو فأوصى به ستالين لدى دزرشينسكي، وأصبح بيريا في الثالثة والعشرين من العمر عميلاً موثقاً به، والتحق بالمفوضية السوفياتية في براغ، وكانت مهمته الإبلاغ عن ضباط الجيش القيصري المنفيين. وقاده عمله هذا الى الاندماج في الحياة الراقية وأصبح معروفاً في الأندية الليلية في مدن وسط أوروبا. وهو يميل الى تعلم اللغات وكان يتكلم الفرنسية والالمانية والتشيكية بطلاقة لا تقل عن طلاقته في الروسية وقد استدعي لقيادة حملة تأديبية ضد المزارعين في موطنه جورجيا، وقد أتم عمله هذا بنجاح وأجيب الى طلبه العودة الى العمل في أوروبا ف قضى منذ عام ١٩٢٨ نحو تسعة أعوام في الخارج، واتخذ لنفسه عدة أسماء مستعارة. تمكن بها من دخول أوساط المهاجرين من المنشفيك

والتروتسكيين. ونظم الرقابة التي فرضت على تروتسكي، ومتابعته في الأماكن التي فر إليها من تركيا إلى ألمانيا ومن ألمانيا إلى الدانمارك إلى أن التجأ أخيراً إلى المكسيك.

وقد تولى بيريا الإشراف على التشيكا في عام ١٩٣٨ في وقت ساء فيه الإدراك بأن الحرب في أوروبا على وشك النشوب وأنها واقعة لا محالة. فتحول الاهتمام إلى المخابرات السرية الاستراتيجية وبخاصة الكشف عن الأسرار العسكرية العلمية. وكانت الخدمة السرية السوفياتية في ذلك الوقت تتألف كلها تقريباً من أشخاص تدربوا في ظل حكم ستالين وبينهم كثيرون من أهل جورجيا. وقد عمد بيريا، وهو رحالة ورجل مثقف إلى تشجيع فكرة ضم عملاء ذي ثقافة عالية لكي يتمكنوا من التعامل مع العلماء ورجال الفكر والثقافة الأجانب ويكونوا في مستواهم العلمي والثقافي.

ويكاد يكون من الأمور المؤكدة أنه لم يكن هو المخطيء في فشل المخابرات السرية السوفياتية ولا في تقدير المقاومة الفنلندية حق قدرها، ثم في مدى الهجوم الألماني الذي كان وشيك الوقوع. عندئذ فإن الوقائع توحى بأن المخابرات السرية السوفياتية زودت الكرملين بالحقائق. ولكن هذه الحقائق أسيء تفسيرها في الدوائر العليا لأسباب سياسية. وقد اضطرت المخابرات السرية السوفياتية خلال الحرب بطبيعة الحال إلى استخدام أكبر قدر من مواردها في الأهداف الحربية وتنظيم حركات سرية للتخريب في الأماكن التي يحتلها العدو. ولكن العمل الجليل الذي أدته هذه المخابرات بزعامة بيريا يظهر في قضايا عديدة هامة واستراتيجية كتلك الواضحة في قضية «شبكة سورج» في اليابان و«الأوركسترا الحمراء» في ألمانيا والمناطق التي كان يحتلها النازيون في أوروبا.

وأخذت مطامع بيريا تنمو داخل الاتحاد السوفياتي وكان يعلم أن التشيكا هي السلم المؤدي إلى السلطة العليا. وعندما انتهت الحرب وقبل الضغط على المسائل العسكرية البحتة، انهمك في تثبيت مركزه بحيث يصبح

مع توقع وفاة ستالين بلا منافس .

وبوفاة «جدا نوف» الذي كان يعد خليفة ستالين أصبح بيريا بدون منازع لأنه انفرد بالإشراف على أداة قوية كالتشيكاف . وكان مالينكوف من أقرب أصدقاء ستالين ، ولكنه مع هذا كان صغير السن ، ولا يتمتع بنفوذ على القادة الآخرين في الكرملين يمكنه أن يخلف ستالين . وكان هو المنافس الآخر الوحيد الذي يخشاه بيريا من صفوف الجيش الأحمر ، حيث كان قواد هذا الجيش يكرهون التشيكاف ويكرهونه هو ويستنكرون التدخل المستمر الذي يقوم به أتباعه الذين أطلق عليهم «ضباط الترفيه» والعمال السياسيون والذين ألحقوا بكل وحدة عسكرية . ولم ينسوا كما لم يغفروا أبداً إعدام الماريشال «توخاشنسكي» في عام ١٩٣٧ ، وكذلك الضباط السبعة الآخرين برتبة الجنرال . وربما كان بيريا يأمل في أن يتفاوض مع الماريشال «بولغانين» وآخرين كـ «جوكوف» و«كونيف» و«فاسيفيسكي» وغيرهم من زعماء هيئة الأركان العامة . وكان يقدر كفاءة مالينكوف ومواهبه ولكنه استهان بمكره ولذا جعله يعقد الصفقة مع الجيش قبل أن يفكر بيريا فيها بزم طويل . وهكذا ختم مصير بيريا عندما اجتمع حملة نعيش ستالين في الكرملين . ولم يكن من المصادفات أن يرأس محاكمة بيريا الماريشال «كونيف» ولا أن يقدم الجيش القضاة العسكريين الذين أرسلوا زعيم التشيكاف الى ساحة الإعدام .

والواقع أن سلسلة الإعدامات هذه لم تفقد التشيكاف خيرة رجالها حيث تولى رئاسة مكتبها كولونيل يدعى «سيرجي كروغولوف» بمعاونة نائبه «سيروف» . انضم «كروغولوف» الى الميليشيا كشرطي وأخذ يرقى السلم ببطء تحت رئاسة منزينسكي وباغودا ويزهوف الى أن أصبح كولونياً وقائداً لحرس الكرملين .

وفي عام ١٩٤٥ رافق مولوتوف الى أول اجتماع للجمعية العامة للأمم المتحدة في سان فرانسيسكو وقد لاحظ رجال المباحث الجنائية الأميركيين أنه يحمل مسدسين ضخمين تحت سترته . وقد تولى إدارة تدابير الأمن في

مؤتمري «الطا» وطهران ومن ثم في «بوتسدام» خلال عام ١٩٤٥. ومما يذكر أن الساسة البريطانيين والأميركيين طلبوا من مولوتوف أن يرشح بعض موظفيه لمنحهم أوسمة بريطانية وأميركية مجاملة لمولوتوف فأجاب بابتسامة ساخرة قائلاً: «أعطوا وساماً لكروغولوف رئيس الأمن عندنا وسوف يقابل ذلك بالتقدير» وأقيمت حفلة كبرى قلد فيها اللورد ايسماي بإسم الملك جورج السادس كروغولوف الوسام الأعظم للإمبراطورية البريطانية، وقلده الرئيس ترومان وساماً أميركياً أعظم وهو وسام الاستحقاق.

واستمرت التشيكا في فرز خبرائها الى ميدان المخابرات كالجنرال «بيتور بوغدانوف» واللفتنانت «جنرال سيمونوفيتش بانيوشكين» وكذلك «يوري اندروبوف» الذي توصل الى رئاسة الدولة في الاتحاد السوفياتي ومن بعده «حيدرعلييف». كما تستمر من ناحية أخرى في تحقيق نجاحاتها العظيمة في التجسس على دول حلف شمالي الأطلسي والحصول على أدق أسرارها وصولاً لشمولية التفوق والسيطرة وتغلغل المخابرات السوفياتية في أميركا وبريطانيا وفرنسا والمانيا واليابان وبلجيكا وكندا وأستراليا وسويسرا والسويد وغيرها هو أكبر دليل على نجاح السوفيات في خرق كل الأجهزة السرية لهذه الدول خدمة للإنسان والاشتراكية.

المراجع

- ١ - أ. هـ. كوكريديج «أغرب جاسوسية في التاريخ» ترجمة وديع سعيد. دار الكاتب العربي. بيروت. دون تاريخ. ص ٣١ - ٤٨.
- ٢ - سعيد الجزائري «المخابرات والعالم». دار الحياة. الطبعة الثانية. بيروت. دون تاريخ. ص ١٣٧ - ١٤٥.
- ٣ - د. حمدي مصطفى «حرب الجاسوسية» دار الوثبة. دمشق. دون تاريخ. ص ١١ - ١٨.
- ٤ - حافظ ابراهيم خيرالله. «الاستخبارات السوفياتية» (ملف عالم الاستخبارات) توزيع الشركة الشرقية للنشر والتوزيع. ابريل ١٩٧١.
- ٥ - روبرت كونكوست «الارهاب الكبير قصة تصفيات ستالين في الثلاثينات» دار النهار للنشر. بيروت ١٩٦٩.
- ٦ - نجدة فتحي صفوة «حكايات دبلوماسية» دار النهار للنشر. بيروت ١٩٧٠. ص ١٠٥ - ١٠٨.
- ٧ - تشيكوف «دزير جينسكي» ترجمة د. سامي عمارة. دار التقدم موسكو ١٩٨٤.
- ٨ - جيرت بوشيت «أسرار المخابرات السرية: مهمات، طرق وتجارب». منشورات آرتو. باريس وغرونوبل. دون تاريخ ص ٦١ - ٨٠ (بالفرنسية).

المخابرات السوفياتية تتغلغل في نخاع الولايات المتحدة الاميركية

الجواسيس السوفيات يتواجدون كالهواء في كل مكان من العالم والأهم من ذلك فإنهم يصلون الى المنطقة التي يريدونها وهم يتنقلون على رؤوس أصابعهم، كي لا يشعر أحد بوجودهم، عكس ما يسعى اليه الاميركيون الذين يضربون الأرض بأقدامهم الثقيلة، لاعتبارهم أن الشعوب لا تحكم إلا بالعنف والقوة والإرهاب. وشتان ما بين الأسلوبين، وكذلك الهدف. وكان من الطبيعي أن لا يقتصر نشاط الاستخبارات الروسية على دول أوروبا الغربية وحدها، بل كان على رأس هذا النشاط القارة الاميركية ذاتها، وبصورة أخص الولايات المتحدة الاميركية، عدوة الشعوب رقم «واحد»، التي استأثرت بالأهمية السوفياتية القصوى في هذا المجال عبر أحد أكبر الجواسيس الخبراء وهو الكولونيل «رودولف ايفانوفيتش ايبيل».

فمن هو هذا الجاسوس الخطير الذي هز الولايات المتحدة؟ وما هي أسرار مهمته الاستخبارية؟

يعتبر «رودولف ايفانوفيتش ايبيل» من أكثر عملاء شبكة الجاسوسية الذرية براعة. وهو الذي عمل دون أن يكشف أمره في نيويورك طوال تسعة أعوام، وبمهارة فائقة لم تتمكن «اف. بي. أي. F. B. I.» من اكتشافه، في نفس الوقت الذي كان يعمل فيه «وليم آرثر مورتيمر» و«جاك سوبل» وغيرهم من العملاء الذين كانوا يعملون باستقلال تام دون أن يعرفوا بعضهم البعض. كانت حياة الكولونيل ايبيل في الولايات المتحدة حافلة بالأحداث

والمخاطر، فقد ولد هذا الكولونيل في موسكو عام ١٩٠٢، ودخل الولايات المتحدة من كندا عام ١٩٤٨ بعد أن دربه دائرة الاستخبارات السرية السوفياتية، حاملاً هوية مزيفة باسم مواطن أميركي يدعى «اندرو كايوتيس» وتابع ابييل سيره الى نيويورك وقرر السكن في فندق صغير في «منهاتن»، فسجل نفسه تحت اسم «مارتين كوليز».

ولاحتراف مهنة معينة، قرر الكولونيل ابييل استعمال هوية أخرى كان «القسم الثالث» قد زوده بمستندات حقيقية عن طفل ولد في نيويورك في شهر /يونيو عام ١٩٠٢، والذي توفي بعد شهرين من ولادته. استعمل الكولونيل ابييل هذه الهوية وأصبح «اميل ر. غولدفوس»، معتبراً أن هذا التخفي كان الأفضل والأكثر أمانة.

وفقاً لقوانين معهد غاكزينات التجسسي، لم يستعمل ابييل غرفة الفندق كمعمل للجاسوسية، خوفاً من أن يكشف خادم أوتيل طفيلي آلات التصوير الخاصة وأجهزة التصوير الدقيقة. فرأى أنه من الواجب عليه وجود العذر المقبول لاقتناؤه جهازاً حيثما كان، فانتقى مهنة الفنان المصور، واستأجر ستوديو مؤلف من غرفة واحدة في بروكلين تحت اسم «اميل غولدفوس». عمل الكولونيل - اميل غولدفوس - لمدة تسع سنوات ببراعة فائقة، وتمكن من استلام وإرسال المعلومات المتعلقة بدفاع الولايات المتحدة، من وإلى موسكو، وهي معلومات تختص بأسلحة قوات الولايات المتحدة المسلحة ومعداتنا وترتيباتها، ومعلومات تتعلق ببرنامج الطاقة الذرية، التي كان يحولها الى رؤسائه في موسكو. وبالإضافة الى ذلك فإنه كان يقوم «بعمليات السابوتاج وإرسال المعلومات الى موسكو بالراديو» اذا ما أعلنت الحرب بين الولايات المتحدة وروسيا السوفياتية.

وخلال نشاطه الجاسوسي في الولايات المتحدة، أرسل الكولونيل ابييل معلومات سرية - حصل عليها من عملائه العديدين - بواسطة جهاز الإرسال والإرسال النقال للموجات القصيرة، وإرساله الأفلام الميكرونية عن

المستندات والمخططات والحسابات العلمية وغيرها من المعلومات السرية.
بطريقة طريفة للغاية.

وعندما أُلقي القبض عليه عام ١٩٥٧، وحوكم أمام محكمة بروكلين
الفدرالية - تجاه ستوديو التصوير الخاص به - اعترف الكولونيل ايبيل أن قطع
النقود المعدنية والأقلام وأزرار القمصان والبراغي المجوفة.. التي وجدها
مكتب الـ «اف. بي. أي. F. B. I.» في غرفته، كانت أوعية لتخبئة الأفلام
الميكرونية وإرسالها إلى موسكو.

أما كيف أُلقي القبض على الكولونيل ايبيل؟ فالقصة غريبة فعلاً لعب
فيها عامل الصدفة دوراً كبيراً أدى إلى اعتقال جاسوس خبير الحق بالولايات
المتحدة من الأضرار ما لا يوصف.

فقد كان «جيمي بوزارت» موزع الصحف والبالغ من العمر ١٤ عاماً،
يهبط درجات السلم لبناء من أبنية بروكلين، بعد أن جمع ثمن الاشتراكات
لبعض من زبائنه. وكان يضم قبضة إحدى يديه على قطع من النقود الفضية
عندما تعثرت قدمه عند إحدى الدرجات، وتساقطت القطع النقدية من يديه
متدحرجة إلى أسفل السلم.

وكم كانت دهشته كبيرة، عندما وقعت عيناه، عند التقاطها، على
إحدى هذه القطع التي كانت قد انشطرت إلى قسمين مع وجود شيء صغير
قد تم إدخاله بين هذين القسمين.

وجلس «جيمي» ليقص على والده ما صادفه، وكأنه يروي له قصة من
قصص الجاسوسية، أو رواية من روايات الفارس المقنع، ولقد لاحظ بعين
الرضى ولأول مرة بأن الرجل العجوز كان أكثر انفعالاً منه تجاه هذه القصة.
ولقد صرح الوالد أمام ابنه «جيمي» بأنه يجب إعلام الشرطة عن هذه
الحادثة، وكان رأي الصبي مماثلاً لرأي والده، فتم تسليم قطعة النقود إلى
المباحثي «فرانك ميللي» والد أحد أصدقائه من الفتيان.

وانقضت أربعة أعوام على هذا الحادث، وفي ٧ / ٨ / ١٩٥٧، تم تقديم الكولونيل آييل الى مجلس القضاء في بروكلين كواحد من أخطر الجواسيس الذين أمكن اعتقالهم في الولايات المتحدة الاميركية، مع العلم أن المباحثي «فرانك ميللي» كان قد وضع قطعة النقود في أيدي المباحث السياسية، حيث اكتشف فنيوها وجود فيلم صغير «ميكرو فيلم» تم اخفاؤه في قلبها، وقد كان يتضمن صور ست خرائط متتابعة. هذا وقد تم إعلام «جيمي بوزارت» بينما كان يستعد لدخول الجامعة بوجوب الإدلاء بشهادته أمام المحكمة المنعقدة لمحاكمة العقيد آييل.

وكان من الواضح تماماً أن المباحث السياسية في الولايات المتحدة الاميركية قد رفضت كشف النقاب عن الأهمية الحقيقية لقطعة النقود، ولكنهم صرحوا بأن اكتشاف تلك القطعة النقدية، ولو أنها لم تمكنهم من التوجه مباشرة الى الجاسوس الروسي، إلا أنها مكنتهم من تكوين فكرة أكثر وضوحاً عن شبكة التجسس التي كان يوجهها آييل، وبداية للبحث الذي انتهى باعتقال ذلك الجاسوس وإصدار الحكم عليه بعد محاكمته بالسجن لمدة ثلاثين عاماً، على الرغم من أن القانون يقضي بإعدامه حتى الموت... وقد كان البحث أمراً من الأمور الصعبة للغاية، إذ كانت التحريات تقتضي تتبع الشعاب والفروع التي تتضمن بدورها المثات من القنوات الواجب اتباعها بغية الوصول الى المصدر الرئيسي. وعموماً ما كانت تنتهي تلك الجهود بمراقبة خاطئة ينتج عنها جهود ضائعة.

هذا ويمكن تكوين فكرة هامة عن أهمية الأضرار وفداحتها التي لحقت بالولايات المتحدة الاميركية من نتيجة أعمال آييل اذا ما استعرضنا أسماء ثلاثة من بين الأشخاص الذين تم اتهامهم في ذات الوقت وفي ذات محضر الاتهام، ولم يكن أحد منهم حاضراً خلال جلسات المحكمة لأنهم كانوا دون شك قد عادوا الى روسيا. وهؤلاء الأشخاص هم:

- «فيتالي بافولوف»: وهو عضو من أعضاء شبكة الجاسوسية الروسية

ومن المقيمين في كندا والذي قام بأعمال نتج عنها اعتقال كلوزفوسن وهيري فولد وروزنبرغ وذلك في عام ١٩٤٦ .

- أما الثاني فكان «الكسندر ميكاييلوفيتش كوروتكوف»: وهو شخصية هامة في الشرطة السرية السوفياتية .

- والثالث «ميكاييل سيفرن»: وهو عضو قديم من الأعضاء العاملين في سكرتارية الأمم المتحدة بنيويورك .

هذا ولم يكن اعتقال العقيد آبل عام ١٩٥٧ من قبل رجال المباحث السياسية، ومنظمة الهجرة والجنسية الاميركية بأمر يسير في حد ذاته، اذ وجهت اليه ببساطة بعض الاتهامات بسبب دخوله الى الولايات المتحدة بصورة غير شرعية، واحتجز لفترة في أحد معسكرات الاعتقال في «ماك اكين» في تكساس بانتظار إبعاده الى خارج البلاد، الى أن تم الكشف عن تلك القصة الخادعة بعد مرور اسبوعين من اعتقاله .

فبينما كان رجال المباحث يعملون على استجواب آبل في تكساس، كان هناك عدد آخر منهم يعملون على تفتيش الاستوديو، قصر تصويره في الطابق الأخير لأحد الأبنية التي تقع في بروكلين في ٢٥٢ فيلتون ستريت، وفي الشارع المقابل لبناء مقر الأمم المتحدة .

وكان سكان فيلتون ستريت يعرفون ذلك الرجل باسم اميل ر. غولدفوس . وهو رجل قصير القامة، دمث الأخلاق، لا يجلب اليه أي انتباه، وكانت هوايته الرسم . ولقد كان ذكياً وموهوباً وفناناً كما كان يدعي ويقول: «ستكون لدي لوحات جميلة خلال خمسة أعوام» . ولم يفاجأ رجال المباحث عندما عشروا أثناء تفتيشهم لصالة تصوير الكولونيل على المعدات المتعلقة بحرفته، مثل آلات التصوير، والأنوار العاكسة، ولكنهم أبدوا اهتماماً خاصاً عندما تم العثور على جهاز للإرسال من القدرة العالية والذي كان يعمل على الموجات القصيرة، وكذلك عندما تم العثور على بعض المعدات الأخرى

التي لم يكن لها أية علاقة بعمل المصور البريء. وقد أمكن حصر ١٢٦ صنفاً مختلفاً مما كان يتضمنه استوديو التصوير بدءاً من مصابيح الإضاءة التي كان بعضها يعمل على المدخرات، حتى الأجهزة القاطعة للزجاج بالإضافة الى الوثائق المتنوعة، والمنظار المزدوج الكبير، وأفلام السينما، ومجموعة من المعدات التكميلية كالمسامير والأقلام وقطع النقود وأزرار الأكمام، وأقراط الأذان، كما كان يمتلك التجهيزات المستخدمة في طبع الوثائق وتصغيرها حتى تصبح بحجم رأس الدبوس. ولقد رفض رجال المباحث أيضاً نشر اللائحة المتضمنة للمعدات التي تم اغتنامها من ستوديو التصوير. كانت مهمة الكولونيل آبل في أعمال التجسس السوفياتية تتلخص في كونه رئيساً مقيماً من رؤساء الشبكات، ومن المحتمل أيضاً بأن لا تكون كل الأنوار المسلطة على أعمال موجة الشبكة قد كشفت بشكل كامل عن كل أدواره، فلقد كان يستخدم جهاز الإرسال على الموجات القصيرة لتلقي كافة الأوامر التي ترسلها اليه موسكو وهو الذي يقوم بنقل تلك الأوامر الى بقية أعضاء الشبكة. كما كان بدوره يبعث بنتائج اتصالاته الى القيادة العامة السوفياتية بشكل رمزي معقد للغاية، كما كان أعوان آبل يستخدمون عدداً من صناديق البريد لإيصال المعلومات اليه. ولقد أمكن اكتشاف هذه الصناديق بفضل وجود بعض الملاحظات التي أمكن العثور عليها عندما تم تفتيش غرفته في الفندق الذي كان يقيم فيه... وقد كان هناك أيضاً الآخرون من العملاء والذين يقيمون على مسافة بعيدة جداً تصل حتى المكسيك. كما كان هناك عدد آخر يقوم ظاهرياً بدور له أهميته في أعمال... الجاسوسية وهم موزعون على الأماكن الهامة مثل «كينكي» والتي تقع في ماساشو، وهي قاعدة جوية، بحرية هامة، و«نيوهايد بارك» في لوس انجلوس، وهي تقع على مقربة من مصنع لإنتاج المعدات الكهربائية المستخدمة في صناعة الصواريخ... ولعل المباحثيون في تلك الأثناء لم يتمكنوا من إدراك، السبب الذي دفع آبل لوضع واحد من معاونين له في «ساليذا» الواقعة في كولورادو، وهي ليست إلا مركزاً صغيراً للإصطياف يقع في قلب الجبال الصخرية، أما طريقة نقل

الرسائل المختلفة من الوثائق والمستندات المصورة فكانت تتم بواسطة استخدام مختلف الأساليب، كالمسامير، وقطع النقود، والجواهر المجوفة، كما كان يتم تسليم بعض الأفلام الصغيرة - ميكرو فيلم - الى العملاء الموثوقين الذين يحملونها معهم الى أوروبا الغربية، ويتم نقلها من هناك الى روسيا، بالإضافة الى أن بعضها كان يتم إرساله بصورة مباشرة الى الشرق.

لقد كانت القواعد الأساسية التي يستخدمها آيبل من الأشياء التي يعرفها تماماً رجال المباحث السياسية الأميركية، ولكن معرفة أولئك الأشخاص الذين يزاولون أعمال الجاسوسية تلك وتحديدهم كان على ما يبدو هو الشيء الرئيسي الذي له أهميته الخاصة للكشف عن تلك الأعمال، لا سيما وأن.. الأميركيين كثيراً ما كانوا يخدعون في تحرياتهم كما حدث في فقد «بيرل روج» حيث كانوا يضلون الطريق لمعرفة الشخص المقصود. ومن خلال أعماله التجسسية، أثبت الكولونيل آيبل بأنه كان عميلاً من أغرب الجواسيس وأخطرهم، كما أنه من الصعب بدون شك، تقدير أهمية الأضرار الفادحة التي ألحقها بالولايات المتحدة الأميركية نتيجة لنشاطه السري الخطير.

لقد كان الكولونيل آيبل مصوراً فوتوغرافياً، وخبيراً في الاختزال والتسجيل، ومهندساً فذاً في الكهرباء، ورساماً رائعاً، وفناناً، كما كان قد بدأ أخيراً في أبحاث مجال الفضاء. وبالإضافة الى كل ذلك فقد كان يتقن كلاً من اللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية والاطالية اضافة الى لغته الأصلية.

وكان من معاوني الكولونيل آيبل جاسوس خطير أيضاً يدعى «رينو هايهاتن» ولقبه «ماك» وهو سوفياتي من مواليد قرية «كاسكيسلري» الواقعة بالقرب من ليننغراد، وقد أصبح خبيراً في المخابرات السوفياتية في عام ١٩٤٣. وكان يلتقي بالكولونيل في أحد محطات المترو اذا كان هناك ضرورة للقائهما. أما اذا أراد اعطائه معلومات كان يتركها في مخايبه سرية في مكان مجوف تحت أحد السلالم في «بروسكيت بارك».

وفي لحظة من اليأس والخوف قرر «رينو هايهاتن» انتهاء عمله مع

المخابرات الروسية بأي شكل، فسافر الى باريس وأخذ يتردد الى أحد مقاهي «الرصيف» في سان جرمان. وتوطدت الصداقة بينه وبين أحد الكرسونات، وكان لبقاً، فأفضى له «هايهانن» بأنه يود التعرف على أي مسؤول بالسفارة الاميركية، فرحب الكرسون بذلك، لأنه نفسه كان من عملاء المخابرات الاميركية. فعرفه حالاً على شخص يدعى «جون» وهو مسؤول المخابرات المركزية الاميركية في السفارة الاميركية في باريس. ولم تمض دقائق حتى كان الاثنان «جون» و«ماكي» يتحادثان في المقهى، وقد صرح هذا الأخير الى «جون» بأنه ضابط في هيئة المخابرات الروسية وزوجته موجودة في أميركا، ولا يريد العودة الى الاتحاد السوفياتي. وفي مكتب المخابرات الملحق بالسفارة الاميركية أفضى «ماكي» بكل شيء، حتى خطر لأحد رجال المخابرات الاميركية وكان قد حضر فوراً من واشنطن لحضور التحقيق بناء لطلب السفارة المستعجل... ان يعرض عليه الفيلم الذي عثر عليه داخل قطعة العملة المعدنية في بروكلين منذ أربع سنوات، فقام «ماكي» حالاً بفك رموز الفيلم وقراءته وتسجيل ما حوى... وصرح «هايهانن» أن هذه الرسالة موجهة اليه بالذات وفيها أنهم - أي رؤساءه - في المخابرات سلموا زوجته مبلغاً من المال ولكنه لم يعرف كيف تسربت قطعة النقود الى بائع الصحف.

وبعد مراقبة دقيقة فرضت على منزل المصور «غولدفوس»، وهو الكولونيل آبل، تمكن رجال المباحث الاميركية من إلقاء القبض عليه. وكان «رينو هايهانن» الشاهد الرئيسي في جلسات محاكمة رئيسه الكولونيل.

إلا أن روسيا وسفيرها في واشنطن تظاهروا بتجاهلهم لإعتقال آبل. وعلى اعتبار أن هذا الأخير جاسوس محترف فلقد تقبل ذلك الإهمال المتعمد ورضي بذلك المصير الذي ينتظر كل جاسوس عندما يقع في قبضة الأسر.

وعندما تم إعلام آبل بأنه يستطيع انتقاء محام للدفاع عنه، طلب السماح له بالاتصال بالسيد «جون آبت» والذي كان لفترة طويلة مستشاراً للإشتراكيين الاميركيين، وقد اعتذر هذا المحامي عن الترافع في تلك

الدعوى بالذات والتي لها صفة خاصة بحجة أنه منشغل جداً ولا يوجد لديه من الوقت ما يمكنه من العمل في سبيل موكل جديد. عندئذ استنجد آيبل بنقابة المحامين في بروكلين التي عملت على تعيين محام هو «جيمس ب. دونوفان» الذي كان واحداً من أعضاء وزارة الإعلام أثناء محاكمات «نورمبرغ» بعد الحرب العالمية الثانية.

ولقد لعبت شهادة «هايهان» بديهياً الدور الرئيسي في محاكمة آيبل، ولكن مجلس المحلفين والذي كان يتكون من تسعة رجال وثلاث نساء ربما كان قد تأثر بصورة خاصة بتلك الشهادة غير المنتظرة.

وقد صرح آيبل رداً على شهادة هايهان بأنه تعرف عليه بواسطة الرقيب الاميركي «روي رودس» المولود عام ١٩١٧ في اوبلتون في ولاية أوكلاهوما، وهو من وزارة الدفاع في الولايات المتحدة وموظف سابق تابع للملحق السوفياتي في كانون الثاني/يناير ١٩٥٢، في موسكو، التي غادرها في يونيو ١٩٥٣. وبقي يتعاون مع الجواسيس الروس بعد أن عاد الى الولايات المتحدة ملتحقاً بمدرسة اتصالات الجيش وهو قسم موجود في مدينة سانت لوبس في كاليفورنيا، ودرب هناك على وظيفة عامل ميكانيكي. وقد كان الرقيب «روي رودس» صاحب ثلاث كاراتات تديرها شقيقته في «رد بنك» في نيوجرسي. كما كان والده السيد و. أ. رودس، يقطن الولايات المتحدة. وكذلك شقيقه حيث يعمل كمهندس في مختبر ذري في كامب جيورجيا مع (عديل) والده. هذا وقد حكم على الرقيب «روي رودس» بالسجن لمدة خمسة أعوام لقيامه بتسليم أسرار هامة الى روسيا عندما كان يعمل كفني في السفارة الاميركية في موسكو.

ولقد استمع الكولونيل آيبل بصمت وهدوء الى الحكم الذي صدر عليه في ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٧ والذي نطق به رئيس المحكمة القاضي «مورتيماز بيرز» وبموجبه اقتضى سجنه لمدة ثلاثين عاماً، على الرغم من أن القانون الخاص بأعمال الجاسوسية والتخريب والذي صدر في عام ١٩٥٤

يسمح بتطبيق عقوبة الإعدام حتى الموت.

إلا أن الكولونيل آييل لم يمض في سجنه أكثر من خمس سنوات، حيث أن الاتحاد السوفياتي كان قد عمل على استرجاعه مقابل تحرير «فرنسيس غاري باورز» جاسوس الفضاء الأميركي وقائد طائرة. . التجسس «يو ٢ U₂» الذي تم اسقاطه في عام ١٩٦٠ فوق الأراضي الروسية، وقد تمت عملية التبادل تلك في برلين في العاشر من شباط/فبراير عام ١٩٦٢.

وأخيراً، نستطيع القول بأن «الأمانة» في الاتحاد السوفياتي تعتبر من الأقاليم المقدسة انطلاقاً من قدسية الإنسان وعظمة قيمته، وليس كما يعتبره المعسكر الغربي والنازية والفاشية، رقماً قي قطع بشري لا قيمة له إلا إيصال الطغاة الى سدّة الحكم.

المراجع

- ١ - ج. برنارد هاتون «مدرسة الجواسيس» ترجمة غسان درويش. المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر. بيروت. يونيو ١٩٦٣. ص ٢٥٤ - ٢٦٣.
- ٢ - كيرت سينجر «اعلام الجاسوسية العالمية» ترجمة بسام العسلي. دار اليقظة العربية. بيروت ١٩٦٥. ص ٣١٧ - ٣٢٨.
- ٣ - سعيد الجزائري «المخبرات والعالم». ص ١٤٥.
- ٤ - أ. هـ. كوكريديج «أغرب جاسوسية في التاريخ» ترجمة وديع سعيد. دار الكاتب العربي. بيروت. دون تاريخ.
- ٥ - أحمد هاني «الجاسوسية بين الوقاية والعلاج» الشركة المتحدة للنشر والتوزيع. القاهرة ١٩٧٤. ص ٥١ - ٦٠ و ٧٨.
- ٦ - اندرو تولي «حقيقة الجاسوسية الأميركية». ترجمة فؤاد أيوب. دار دمشق. دون تاريخ. ص ٢٩٨ - ٣١٤.

المخابرات السوفياتية تتغلغل في نخاع بريطانيا

كم هي عظيمة بالفعل تلك العبارة القائلة «بأن الذين يتنقلون على رؤوس أصابعهم غير الذين يضربون الأرض بأقدامهم الثقيلة»، هذا ما ينطبق على السوفيات الذين يتسللون في المدن والمناطق والدول كما يتسلل الهواء من خرم الإبرة، وكذلك على الاميركان الذين يوهمون البشرية بأن التاريخ لا يكتب إلا بالأحذية التي ينتعلونها. . . وشتان ما بين الأسلوبين . . .

إلا أن ما يجب الإشارة اليه هو أنه ليس من السهل علينا أن نفهم كيف يمكن «للجواسيس الحمر» أن يعملوا بنجاح لسنين في بلد أجنبي دون أن يفتضح أمرهم. أما ما يجب الاعتراف به هو أن نجاحهم الرائع يعود الى تدريبهم الفريد من نوعه والى كون الجاسوس الروسي لا يشغل باله بالأمور المالية . .

وعندما كانت هناك مدارس ومعاهد كبرى في الاتحاد السوفياتي، تعمل على تخريج «الجواسيس الحمر» وفرزهم للعمل في الدول الغربية، فقد كانت بريطانيا تلك الامبراطورية التي كانت لا تغيب عنها الشمس، على رأس اهتمامات الجاسوسية الروسية . .

ولعل نموذج «الدكتور جفري نوبل» من أهم هذه النماذج وأشهرها.

فما هو سر هذا الجاسوس الروسي؟ وماذا كانت مهمته؟ .

ففي تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٢، تسلل الى انكلترا، شخص غريب، كان

اسمه «مارك بوريسوفتش زاغورسكي» وكان عميلاً للمخابرات الروسية. ولد عام ١٩٢١ في «فورونيز» وصنف عام ١٩٣٩ على أنه «صالح للمهمات الخاصة» ووضع على لائحة المنوي إرسالهم «للخدمة في المملكة المتحدة».

عند دخول مارك الى معهد «غاكرينا» عرف باسم «الدكتور جفري نوبل» وكان رقم تسجيله ب - ١٠٢١١ / ٢٦١ - ج - وقد أمضى سبعة من سنين تدريبه العشر في «غاكرينا» حيث كان الجاسوس السوفياتي الكبير «غوردون لونشديل». ولكن هذين العميلين اللذين لاقيا حتفهما لأنهما لم يستطيعا الخروج من انكلترا في «الوقت المناسب» لم يلتقيا في «غاكرينا» لأن كلا منهما كان يتدرب في قسم مختلف عن الآخر.

وفي نوفمبر ١٩٥٢، عندما أصبح «الدكتور جفري نوبل» صالحاً للعمل في الخارج جرى تهريبه الى انكلترا، حيث كان قسم المواصلات في القيادة العامة للمخابرات في موسكو بحاجة ماسة الى جاسوس في انكلترا رغم عدم توفر الطريقة المشروعة لإدخاله الى هذا البلد وعدم توفر النقل الأمين. لذلك وضع الدكتور نوبل على غواصة تابعة للبحرية الحمراء ليجري تهريبه الى انكلترا. وعندما وصلت الغواصة الروسية الى شواطئ انكلترا تحت ستار الظلام وتحقق قبطانها أن أمر وصولها لم يعلم به أحد، أمر الدكتور نوبل بالسباحة في المياه الباردة الى وطنه الجديد. كانت المسافة قصيرة وكان نوبل مجهزاً أحسن التجهيز لمهمة خاصة. كان يرتدي ثياباً صوفية وكان يحمل حقيبة انكليزية محفوظة في عوامة صممت خصيصاً يحملها السابح الوحيد..

من على ظهر الغواصة كان ضابط أمن الدولة يراقب الدكتور نوبل. ولما وصل هذا الأخير الى الشاطئ دون عناء ودون أن يكتشف أمره، تقيد بالتعليمات فأخرج محفظته الناشفة من الواحة العازلة للماء ووضع في مكانها ثياب الغوص والملابس الصوفية وبينما كان يرتدي ثياباً انكليزية الصنع كان

الرجال على الغواصة يسحبون اليهم حوائج الجاسوس بواسطة جبل رفيع مربوط بالغواصة. لما تحقق نوبل من أن أحداً لم يره، توجه الى البر وفق الخطة المرسومة بدقة. ولم تقلع الغواصة إلا عندما شهود نوبل يبدأ رحلته بأمان.

وصل الدكتور جفري نوبل الى «مدلز بوره» دون صعوبة، ومن هناك توجه الى «أدنبرة» حيث مكث يومين ليتأكد من أنه غير ملاحق. وبعد أن ادعى أنه طبيب انكليزي في اجازة، عرج نوبل في طريقه الى «كازلايل» وكل ما عرف عنه أنه كان لطيفاً للغاية ومنظوياً على نفسه لا يستقبل الزائرين. ولكن خلف هذا القناع كان يخفي جاسوس سوفياتي لامع حصل على أعلى الدرجات خلال تدريبيه في «غاكرينا». وكان ملفه في مديرية الخارجية في موسكو يحمل الملاحظة التالية: «أكثر العملاء تبشيراً بالخير»..

نفذ الدكتور نوبل خلال الشهر الأول من اقامته في «بيمليكو» التعليمات المعطاة له وهي أن لا يقوم بأي نشاط، وأن يعود نفسه على محيطه الجديد. ورغم أنه عمل وفق التعليمات بمضمونها العام، فقد راح يبحث عن عملاء يساعدونه في مهمته. استطاع نوبل أن يصادق العديد من الشباب والشابات من خلال ترده الى البار القريب من منزله والى المطعم المتواضع قرب محطة فيكتوريا والى الحفلات الراقصة في الفنادق الشعبية. فكان حالما توثقت أواصر الصداقة مع أحد هؤلاء يسعى الى معرفة المزيد عنه فيستطيع بذلك التأكد اذا كان صالحاً للعمل أم لا..

كانت مهمة الدكتور نوبل - أحد الجواسيس الروس المقيمين في انكلترا - أن ينشئ جهازاً من ضباط الاتصال والمخبرين و«مستلمي البريد» ليكون عملهم تزويد موسكو بالمعلومات الهامة. أما القيادة العامة للمخابرات في موسكو التي يزودها مخبروها باستمرار بأسماء الأجانب الصالحين للعمل وبالتفاصيل الكاملة عنهم لم تعط نوبل أيّاً من أسماء هؤلاء. فقد كان عليه أن يجدهم بنفسه..

تعرف نوبل في حفلة رقص قرب «بيكاديللي سرکس» الى فتاة جميلة حمراء الشعر تدعى «سوزان» وسرعان ما أصبحت - دون علمها - أول عضو في جهازه الجاسوسي . كانت سوزان تعمل في شركة إعلان شهيرة وتملك شقة مستقلة في «ماربل ارتش» فاعتبرها الدكتور نوبل صالحة لأن تلعب دور «صندوق البريد» . فقد كانت انكليزية الأصل لا يمكن أن تثير الشبهات ويؤهلها عملها أن تستلم رسائل من الخارج . فاستغل إعجابها وسعى بكل الطرق الى تحويل صداقتهما الى حب . لكن لم يرتكب خطأ دعوتها للعمل معه بادیء ذي بدء . فقد كان خريج «غاكزين» حذراً للغاية . لم يكن من داع لكي يتعجل الأمور ويخاطر بإثارة شكوك الفتاة . فقد كان من الطبيعي بالنسبة لطبيب مثله أن ترده الرسائل والبطاقات البريدية من دول صديقة في القارة الأوروبية . وبما أن تنظيم جهازه سيستغرق بضعة أشهر فيضطر آنذاك تأمين الاتصال مع موسكو بواسطة البريد غير المباشر فلا داعي للعجلة . .

لذلك بعد ست أسابيع من تعرفه الى سوزان طلب منها أن يستعمل شقتها لاستلام رسائله من الدانمرك وفرنسا وسويسرا أو الدول الغربية الأخرى . وكان تبريره لهذا الطلب أن الرسائل التي تصل الى منزله لا توزع على السكان إلا دفعة واحدة . وقد كان بسبب الإهمال في التوزيع يتأخر في استلام بريده . في ذلك الحين كانت أواصر الصداقة قد توطدت بين نوبل وسوزان . وغالباً ما كانا يتحدثان عن مشروع خطوبة في المستقبل . لذلك رضيت سوزان ، والتي لم تذهب الى منزل نوبل ، أن تصل رسائله الى عنوانها وقد كانا يلتقيان يومياً ويستلم منها بريده دون تأخر .

منذ ذلك الوقت حتى آخر أيام تجسسه في انكلترا ، أصبح عنوان سوزان - صندوق البريد - واسطة لاستلام الرسائل السرية من القيادة العامة للمخابرات في موسكو . ورغم أن الفتاة غالباً ما كانت تعطي حبيبها رسائل عادية وبطاقات بريدية ملونة ، فهي لم تشك مطلقاً أن تحت طوابع البريد الأوروبية كانت توجد تعليمات حول النشاط الجاسوسي . وطوال علاقة سوزان مع «جيف» - كما كانت تسميه - لم يساورها الشك مرة واحدة أن صديقها

اللطيف الطيب القلب الذي وعداها بالزواج لم يكن طبيباً بريطانياً شاباً بل جاسوساً روسياً خطيراً له أهميته . .

استطاع الدكتور نوبل خلال الشهر الأول من إقامته في لندن أن يجمع لائحة من الناس اعتبرهم صالحين للعمل . ورغم أنه كان مستعداً للبدء في العمل ، فقد تذكر تدريبه في «غاكزين» وأدرك أنه من العبث أن ينشئ جهازاً من المخبرين وضباط الاتصال والعملاء المختلفين دون أن يجد مكاناً يجتمع فيه بهم وينظم اتصالاً مستمراً معهم . فلم تكن شقته أو منازلهم أو المطاعم المجاورة أو أية أمكنة أخرى صالحة للإجتماع ، وكانت كلها معرضة لأن تثير الشبهات عاجلاً أم آجلاً . .

ومن الخطأ الكبير أن نفترض أن استعجال الدكتور نوبل للحصول على نتائج كان بدافع إصرار القيادة العامة في موسكو . على العكس تماماً ، كان رؤساؤه يؤكدون عليه في كل الرسائل أن يأخذ الوقت اللازم لتنظيم جهاز جاسوسية فعال .

وكان أن وقع بصره على دكان صغير لتصليح الأحذية . واعتقد أنه صالح كمركز للإجتماع . فدخله ليتحقق من عدد الذين يعملون فيه . وبينما كان يشتري علبة دهن لمسح الأحذية ، بدأ يحدث الرجل الذي كان يبيعه أياها . وسرعان ما علم أنه صاحب الدكان . تحدث نوبل طويلاً معه وعلم أنه فتح دكانه حديثاً ووضع فيه كل ما ادخره من مال ، ولكنه لاقى مضاربة شديدة من جيرانه مما جعله لا يكاد يحصل على لقمة العيش . وكان هذا تماماً ما يريده الدكتور نوبل . وتبين له أنه اكتشف بطريق الصدفة الرجل الذي كان يبحث عنه . لكنه لم يعرض على مصلح الأحذية العمل معه ، بل قال له أن حذائه الآخر بحاجة الى تصليح وأنه سيصبح زبوناً دائماً إذا ما رضي عن العمل .

منذ ذلك الوقت ، أخذ الدكتور نوبل يتردد باستمرار الى الدكان الصغير يجلب أحذية للتصليح أو يشتري دهناً للمسح أو أشرطة لأحذيته . وكان في

كل مرة يجبر صاحب الدكان الى حديث ويعلم منه أكثر فأكثر دون أن يفضح أمام الرجل اهتمامه البالغ .

بعد ثلاثة أسابيع من زيارته الأولى ، دخل ليشتري دهناً لمسح الأحذية وكان قد صمم على أن يدعو الرجل للعمل معه . ولكنه قبل أن يقدم عرضه قال له صاحب الدكان أنه مضطر الى إقفال دكانه في نهاية الأسبوع . وللمرة الثانية يحالف الحظ الجاسوس نوبل ، فقال للرجل أنه على استعداد لمساعدته حالياً حتى يستمر في عمله . .

كانت تلك المرة الأولى التي يعرض فيها مساعدة مالية على مصلح الأحذية دون أن يطلب منه ضمانات فكاد الرجل أن لا يصدق أذنيه . ولكن عندما أخرج الدكتور نوبل ورقة المائة جنيه من جيبه وسأله اذا ما كانت كافية ، تأكد صاحب الدكان أن العرض صادق . لذلك وقع دون معارضة على وصل استلام المبلغ الذي كتبه الدكتور نوبل . .

بعد انتهاء العمل ، دعا نوبل شريكه الجديد لتناول كأساً من المشروب في منزله . وبعد أن شربا بضعة كؤوس طلب منه أن يعود معه الى الدكان حيث يمكنهما التحدث دون خوف . .

كان الجاسوس السوفيائي البارع مصمماً على الشروع في استعمال الدكان دون تأخير . وفي سبيل المزيد من الحذر أضاف الى الإيصال باستلام المائة جنيه أن هذا المبلغ دفع ثمناً لمعلومات سرية بغية التهديد بفضح الرجل اذا ما اقتضى الأمر . وكم كانت دهشته عظيمة عندما لم يمانع صاحب الدكان في أن يستعمل نوبل دكانه ، بل سأل فقط عن المبلغ الذي ستدفعه المخابرات الروسية .

سر الدكتور نوبل في أن اتفقاها السريع لم يكن مناورة للتخلص منه أو إخبار البوليس عنه . فالرجل كان بحاجة ماسة للمال فعرض عليه مبلغ مائة جنيه شهرياً ، هكذا رضي الطرفان . . فالدكتور نوبل وجد مركز اجتماع أمين ،

ومصلح الأحمية سنحت له الفرصة ليكسب أضعاف ما كان يكسب . .

بعد أن وجد الدكتور نوبل مركزاً للإجتماع، بدأ البحث بسرعة عن مخبرين. كانت لائحته تحوي اسم موظف في الحكومة مسؤول عن الوثائق السرية، ومهندس في مؤسسة للأبحاث الالكترونية لمشاريع عسكرية سرية ورجال محترمين آخرين صالحين للإنضمام الى الجهاز. .

كان المهندس الضحية الأولى . . فرغم أنه يتقاضى راتباً محترماً، كان يتذمر دوماً من وضعه المالي ويقول أنه يعمل ساعات اضافية ولكن ما يتبقى له من راتبه بعد دفع الضريبة لا يكفي لفك الرهن عن بيته ولإعالة زوجته وولديه على مستوى يليق برجل في مهمته. كان يحب الويسكي ويلبي دعوات الدكتور نوبل الدائمة للشراب.

وفي ذات يوم طلب منه الجاسوس أن يأتي له بنشرة تقنية ودفع له خمسة وعشرون جنيهاً ثمناً لها. تعجب المهندس من هذا وأبلغه أن بالإمكان شراء هذه النشرة من أية مكتبة بنصف جنيه. وأن الدكتور نوبل يستطيع أن يجد نسخة عنها في شارع بالذات. ولكن عندما أوضح له الجاسوس الذي يملك جواباً ملائماً لكل مناسبة أن تدرج كمية من المال في رهان كرة القدم، وأن هذا المبلغ إعانة له لدفع ديونه، وأصر على أن يشتري له ويسكي آخر، ولم يجد المهندس أي خطر في أن يقبض المبلغ، ففعل.

وهكذا أوقع نوبل فريسته في الشرك. فعند لقائهما الثاني جلب المهندس النشرة التقنية واجترع كأساً من الويسكي قدمه له نوبل. شعر هذا الأخير بالارتياح فعرض على صديقه مساعدات جديدة. ولما أجاب المهندس الذي لم يرتب بشيء أنه دوماً على استعداد لكسب المال، اقترح عليه نوبل أن يوصله بسيارته الى «ماربل آرتش».

وعندما اختلى الرجلان في السيارة طلب منه الجاسوس معلومات سرية عن الأبحاث الالكترونية في مؤسسته. غضب المهندس في بادئ الأمر وصاح أنه لن يبيع معلومات سرية لأحد مهما كان الثمن. لكن نوبل هدده

بالخمسة والعشرين جنيهاً التي أعطاهـا له قائلاً أنها كافية كدليل على جرمه، وطمانه أنه سيدفع له مئـات الجنيـهات ثمن معلومات مهمة. وعندما أوشك المهندس على أن يوافق أعـاد الدكتور نوبل تطبيق ما تعلمه في «غاكزينا» وقال لصديقه أنه لا يطلب قراراً مستعجلاً بل يفضل منه أن يفكر بالأمر ملياً قبل أن يتخذ قراراً خطيراً كهذا. واقترح على المهندس أن يبلغه قراره النهائي في اليوم التالي. وحتى يعطيه مزيداً من التشجيع دون أن يجعله يرتاب في شيء أعطاه مئة جنية «كعربون صداقة».

وبدأ الجاسوس يقلق عندما لم يصل صديقه الى البار في الموعد المحدد. وأخذ يشك أنه قد قرر عدم العمل معه أو أنه كان يحفر له فخاً لمساعدة البوليس، ولكن رغم ذلك، قرر أن ينتظر مدة أطول. وبعد أربعين دقيقة وصل الرجل الذي قال أنه تأخر بسبب عمل مهم. ويعد أن شرب الويسكي اقترح على نوبل الخروج في نزهة بالسيارة..

لم يفاجأ الدكتور نوبل عندما سمع أن صديقه قرر قبول العرض بعد أن فكر به ملياً، لكنه فوجئ عندما علم أن السبب الحقيقي لتأخره أنه كان يتحين الفرصة لجلب وثيقة مهمة موجودة على القائمة السرية. وقد استطاع الحصول عليها لتصويرها. وفي بداية فبراير ١٩٥٣، صنفـت القيادة العامة للمخابرات في موسكو جهاز التجسس الذي بدأ الدكتور جفري نوبل من لا شيء على أنه أكثر الأجهزة نشاطاً وأهمية. ورغم أن هذا الجهاز لم يكن مسؤولاً عن الجاسوسية العسكرية، فقد استطاع أن يوفر معلومات هامة عن الأبحاث الالكترونية المتعلقة بالأسلحة السرية. وتزايد نشاط نوبل لكنه استطاع بحذره وحرصه الشديدين أن لا يشير الشبهات حوله. فرغم أنه توفر لديه عدد هائل من المعلومات والوثائق المصورة، كان يحرص على أن لا يزيد نسبة البريد الذي يتلقاه أو يرسله. وكان يفضل صرف كميات كبيرة من مال المخابرات لإرسال أشخاص الى الخارج..

وأعلن نوبل خطوبته على سوزان. وأعلن أمام أصدقائه في الحفلة التي

أقيمت بهذه المناسبة أن موعد الزواج سيكون يوم عيد الميلاد التالي، ظناً منه أن هذا يساعده على أن يظهر أكثر استقراراً ووجاهة أمام الناس.

ورغم أن خداعه للناس كاد أن يقرب حد الكمال، فإن «سكوتلانديارد»، و«مركز م. أ. ٥» استلما اخبارية من الخارج تقول أن جاسوساً سوفياتياً قد دخل بريطانيا سراً في نوفمبر ١٩٥٢، والمفروض أن يكون اسمه «كولين وورد» وأدت تحريات الشرطة الى الشقة المتواضعة في «بيمليكو»، حيث وجدوا أن أوصاف «كولين وورد» مطابقة للدكتور نوبل. وقد كان الجاسوس الروسي الماهر قد ارتكب خطأ واحداً. كان يحتفظ في شقته بأربع جوازات سفر بريطانية مزورة. ورغم أن رجال المباحث لم يجدوا معدات الجاسوسية أو لائحات أعضاء جهاز التجسس، فقد عثروا على دليل يثبت أن الإخبارية القادمة من الخارج صحيحة. كانت الجوازات البريطانية المزورة معطاة من قبل سلطات في مناطق مختلفة من انكلترا وتحمل الأسماء التالية: الدكتور نوبل، موريس وورد وكانت كلها تحمل صورة الرجل المعتقل. ففي واحدة كان رأسه مكسواً بالشعر وفي الثانية كان أصلعاً وفي الثالثة كان يرتدي نظارة شمسية أما في الرابعة فقد كان أصلع الرأس ويرتدي نظارة طبية..

اعتقل «مارك بوريسوفتش زاغورسكي» الملقب بالدكتور جفري نوبل وكولين وموريس وورد، وأخذ الى مركز الشرطة في شارع جرالده، حيث رفض الإدلاء بأي اعتراف. وقبل أن يبدأ ضباط الشعبة بالتحقيق معه، وجد مشنوقاً في زنزانته بعد اثنتي عشرة ساعة من اعتقاله. وبعد انتحاره، تفرق الجواسيس الذين كانوا يساعدونه. وهكذا خسرتهم المخابرات الروسية..

والواقع أن الدكتور جفري نوبل وشبكته التجسسية لعبوا دوراً هاماً وكبيراً في التغلغل في أعصاب بريطانيا وشرائنها وحتى في عظامها أيضاً. كما كانت الخسارة التي منيت بها المملكة عبر هؤلاء الجواسيس الأحمر، عظيمة جداً من خلال تلك المعلومات والوثائق السرية التي كانت على جانب كبير من الخطورة..

وهكذا أثبتت هذه الشبكة أن الامبراطورية التي كانت لا تغيب عنها الشمس معرضة لأن تتغلغل فيها «أشعة الشمس السوفياتية» ولكن لمصلحة السوفيات هذه المرة وليس لمصلحة بريطانيا وعظمتها الاستعمارية ..

المراجع

- ١ - ج. برنارد هاتون «مدرسة الجواسيس» ترجمة غسان درويش. المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر. بيروت ١٩٦٣. ص ١١٣ - ١٢٥.
- ٢ - مجلة «الجيل» القبرصية. عرض ميخائيل الخوري بعنوان: «فضيحة العصر: مدير المخابرات البريطانية جاسوس سوفياتي» العدد الرابع. المجلد الخامس. ابريل ١٩٨٤. ص ١٤٥ - ١٥٦.
- والمجلد الخامس. العدد الخامس. مايو ١٩٨٤. ص ١٤٤ - ١٥٥.

المخابرات السوفياتية تتغلغل في نخاع اليابان

تعتبر شبكة التجسس السوفياتي في اليابان من أهم الشبكات الجاسوسية التي حققت لروسيا أكبر المنجزات وأعظمها في التاريخ، وقد أجمعت كافة المؤلفات والآراء التي تناولت أعمال هذه الشبكة التي كان يرأسها الدكتور «ريتشارد سورج» على تأكيد أهمية المكتسبات والدور الكبير الذي قامت به في خدمة الأهداف التكتيكية والاستراتيجية للإتحاد السوفياتي.

انطلاقاً من ذلك فقد ذكر رونالد سميث في كتابه «فن الجاسوسية» أن هذه الشبكة حققت واحداً من أهم الأعمال في تاريخ الجاسوسية العالمية. كما أوضح الملحق السياسي بسفارة ألمانيا بطوكيو في الفترة التي عاصر فيها نشاط هذه الشبكة أنه يعجب بما قام به سورج من أعمال باهرة في الجاسوسية وهي تكاد تكون ضرباً من المستحيل، حيث كان من أقدر الجواسيس وأشدّهم خطراً في جميع العصور. أما كورث سنجر فقد وصفه بأنه أعظم جاسوس في تاريخ روسيا القيصرية والشيوعية.

وفي الحقيقة أننا لا نبالغ القول بأن النتائج النهائية للحرب العالمية الثانية قد ترتبت على الأعمال الهامة والمتوالية لهذه الشبكة. وهو ما يضع انجازاتها في مقدمة العمليات البارزة التي قامت بها أجهزة المخابرات المختلفة في الحرب العالمية الثانية بل وخلال جميع المراحل التاريخية السابقة.

والجدير بالذكر أن الفضل الأول في انتصار القوات السوفياتية الحاسم على الجيش الألماني في معركة ستالنجراد، والذي كان بداية النهاية للرايخ الثالث، يرجع إلى المعلومات التي حصل عليها العملاء السوفييات في اليابان، والتي مكنت من نقل نحو مليونين من الجنود السوفييات من الحدود الشرقية والجنوبية لسيبيريا إلى ميدان القتال حيث كانت الحاجة اليهم ماسة، مما أدى إلى الحيلولة دون سقوط العاصمة السوفياتية في أيدي القوات الألمانية ثم هزيمتها بعد ذلك في جميع المعارك الهامة التالية.

فمن هم عناصر هذه الشبكة التجسسية؟ وما هي أسرارها؟.

لا شك أن نجاح الشبكة يرجع في جانب كبير منه إلى شخصية وأعمال رئيسها الدكتور ريتشارد سورج الذي يعتبر بحق من أفضل وأشهر رجال المخابرات على مر التاريخ. فهو الماني الجنسية، ولد عام ١٨٩٥ من أبوين المانيين. وقضى فترات صباه وشبابه بين مواطنيه مما يثير بالتالي حقيقة الدافع الذي جعله من أكثر الشيوعيين الأجانب ولاءاً للإتحاد السوفياتي، وللشيوعية الدولية، ومن أفضل العملاء السوفييات منذ ثورة أكتوبر حتى الوقت الحالي. وتعطينا الظروف السياسية والعسكرية والاقتصادية التي عاصرها والمبادئ الشيوعية التي تأثر بها تفسيراً واضحاً لهذه الحقائق.

فقد تأثر سورج بهزيمة بلاده في الحرب العالمية الأولى، والظروف الاقتصادية السيئة التي عاشتها في أعقاب الحرب والتي عانى من ويلاتها الكثير، حيث أصبح عاطلاً عن العمل، ولا يجد ما يستعين به على مواجهة متطلبات الحياة. وقد انعكس ذلك على تفكيره ومعتقداته إلى حد التذبذب، ومهد كل هذا للتحول الرئيسي في آرائه ونظراته للمجتمع الألماني وغيره من المجتمعات.

وكانت الخطوة الكبرى التي أعقبت ذلك هي التجاهل إلى قراءة المؤلفات والمراجع الشيوعية خاصة كتابات ماركس ولينين، والتي جعلته يؤمن بأن الأنظمة التي قامت على أساسها هي الوحيدة التي يمكن أن تحل جميع

مشاكل المجتمع الألماني، فضلاً عن مشاكله الخاصة، (وكان رائده في ذلك جده لأبيه أدولف سورج الذي كان سكرتيراً خاصاً لكارل ماركس) وقد أدى هذا الاتجاه في النهاية الى التحاق ريتشارد سورج بالحزب الشيوعي الألماني (فرع هامبورغ) في نفس اليوم الذي حصل فيه على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية عام ١٩٢٠.

ونظراً للنشاط الواسع الذي قام به سورج في خدمة فرع الحزب بهامبورغ (تلقين مبادئ الشيوعية للطلبة الذين قام بالتدريس لهم ولعمال المنجم الذي عمل فيه الكثيرون غيرهم - واشترأك في اضطرابات كميل التي أدت الى تمرد الاسطول الألماني...) وتفانيه في تحقيق الأهداف الأخرى للشيوعية. بالإضافة الى تمتعه بذكاء خارق وبديهة حاضرة وإرادة قوية، أدرك المسؤولون عن المخابرات السوفياتية بالاشتراك مع زعماء الحزب الشيوعي الألماني أن سورج يعتبر هدفاً صالحاً للتجنيد، وبعد مزيد من التحريات التي أكدت هذا الاتجاه تم عرض فكرة التعاون عليه.

قوبل هذا التجنيد من جانب سورج بارتياح، لإتاحته فرصاً واسعة أمامه لخدمة المبادئ التي آمن بها فضلاً عن كونه ميداناً جديداً لا يخلو من الإثارة المحيية الى نفسه. وقد اجتاز بنجاح جميع المراحل المتعددة للتدريب والتي استغرقت خمس سنوات وأجاد خلالها جميع الوسائل الفنية المتعلقة بالمهنة، وثلاث لغات أجنبية هي الروسية والانجليزية والفرنسية، بالإضافة الى لغته الأصلية ثم تعلم فيما بعد اللغتين الصينية واليابانية. كما قام بزيارة عدد كبير من الدول (الاتحاد السوفياتي - الولايات المتحدة - الدول الاسكندنافية - الدول البلقانية - بريطانيا - الصين - هونج كونج - اليابان - الخ...) مما كان له أثره في زيادة الخبرات التي اكتسبها وتوسيع أفاق تفكيره.

وعندما اختير لرئاسة الشبكة السوفياتية باليابان - بعد توليه عدة مهام مماثلة في دول كثيرة - كان قد اطلع بالفعل على عدد كبير من المؤلفات السياسية والاقتصادية التي جعلته باعتراف الجميع أحد الخبراء الذين يعتمد

عليهم في الشؤون الدولية والداخلية لعدد كبير من الدول. وقد حرص بعد توليه العمل باليابان على دراسة كل ما يتعلق بالسياسة الخارجية لها، وعلاقاتها الثقافية مع الدول الكبرى، فضلاً عن معرفة دخائل القوى الرئيسية التي تسيطر على سياستها الداخلية والعوامل التي تحركها والمشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تسود المجتمع الياباني، الأمر الذي ساعده بعد ذلك كثيراً في إدارة الشبكة بكفاءة ودقة نادرتين، وجعله بحق من أفضل وأشهر رجال المخابرات على مر التاريخ.

ونظراً للأهمية الكبيرة التي علقها الاتحاد السوفياتي على النتائج التي يمكن أن تحصل عليها شبكة اليابان، اشترك مدير المكتب الرابع التابع لهيئة أركان حرب الجيش السوفياتي بنفسه مع سورج في اعداد الخطط الرئيسية لها وطريقة تشغيلها وأسماء أعضائها والوسائل التي ستستخدمها في نقل المعلومات التي ستحصل عليها. وقد بدأت الشبكة نشاطها بالفعل في سنة ١٩٣٤. ويلاحظ أن معظم أعضائها الرئيسيين وهم سورج - اوزاكي - كلاوزن - فوكولويتش) كانوا يعملون من قبل في الشبكة السوفياتية بالصين، أي كانت لهم خبرة سابقة وطويلة بأعمال المخابرات، وبالظروف الدولية والداخلية لمنطقة جنوب شرقي آسيا، الأمر الذي أتاح لهم خلفية واسعة عن سياسة اليابان تجاه هذه المنطقة. وهو ما ساعدهم فيما بعد على إنجاز أعمالهم التي تعلقت في جزء كبير منها بالنوايا المعاصرة والمستقبلية لليابان.

وعندما كان من المعروف أن نجاح أي عمل في ميدان المخابرات لا يتحقق إلا باتخاذ الشخص الذي سيتولاه ساتراً أي غطاء يتلاءم مع طريقة العمل الذي يقوم به ويغطي حقيقة نشاطه ويعطيه في نفس الوقت حرية واسعة للحركة وإقامة الاتصالات الضرورية. فقد نجح جميع الأعضاء الرئيسيين في الشبكة بدون استثناء في توفير الساتر المناسب واستغلاله لأقصى درجة ممكنة. ونظراً لأهمية هذا الجانب فإنه لا بد من الإشارة الى طبيعة السواتر التي اتخذها الأعضاء الخمسة الرئيسيين بالشبكة (سورج - اوزاكي -

كلاوزن - فوكولويتش - مياجي) والدور الذي قام به كل منهم خلالها.

سورج :

حرص سورج قبل توليه رئاسة الشبكة على مراعاة هذا العامل، وأدرك بالاشتراك مع رؤسائه السوفيات أن الارتباط، الشكلي بالنظام النازي الذي يسود ألمانيا أمر ضروري لتسهيل مهمته باليابان، خاصة على ضوء التقارب الكبير في العلاقات بين الدولتين. كما أدرك أن العمل الصحفي هو أفضل سائر يمكن اتخاذه لتحقيق نفس الهدف، وتوقع أن تكون اتصالاته بأعضاء السفارة الألمانية بطوكيو ذات فائدة غير محدودة لأعماله لأنها ستتيح له قدراً كبيراً من المعلومات عن كلا البلدين وإبعاد الشبهات عن حقيقة نشاطه، لذلك فقد بادر بالسفر الى ألمانيا ونجح في تحقيق كل ما دار في ذهنه من تخطيط حيث قام بما يلي :

أولاً: تمكن من الانضمام للحزب النازي بناء على توصية من بعض زملائه القدامى.

ثانياً: التحق بقسم الصحافة التابع للحزب بتزكية من بعض الألمان ذوي النفوذ.

ثالثاً: نجح في الظهور بين الأوساط النازية الرسمية، وأن يكون معروفاً لديها الى الحد الذي كان يدعى فيه الى الحفلات التي يحضرها هتلر، وقد كان لذلك أثره فيما بعد من اعتقاد أعضاء السفارة الألمانية بطوكيو والمسؤولين اليابانيين بأنه كان يتمتع بثقة وتأييد الحزب النازي.

رابعاً: حصل على وظيفة مراسل لثلاث صحف ألمانية كبرى في اليابان.

خامساً: دعا كل من وزير الدعاية الألماني (غوبلز) ورئيس قسم الشؤون الخارجية في رئاسة الحزب النازي (بوهل) للحفل الذي أقامه نادي

الصحافة الالمانى له (سورج) قبل سفره الى طوكيو.

واستمر سورج بعد وصوله الى طوكيو في استغلال الساتر الجيد الذي ارتبط به، وقد ساعد على ذلك الصفات الشخصية الفريدة التي كان يتمتع بها، فأقام صلات عمل وصداقة مع معظم أعضاء السفارة الالمانية، وبصفة خاصة مع السفير والملحق العسكري بحيث أدت الى تعيينه رئيساً لإدارة الاستعلامات بالسفارة وبالتالي معرفة أدق أسرارها سواء عن طريق هذا المنصب أو بواسطة السفير الذي كان يتمتع بثقته الكاملة (كان يتناول معه يومياً طعام الافطار). وليس هناك أدل على براعة سورج في اخفاء حقيقة نشاطه من قول أحد الملحقين بالسفارة بطوكيو حينئذ بأنه كان يتمتع بكل مبررات الثقة فيه وأن جميع الموظفين - بما فيهم الملحق - كانوا يعتقدون أن حقيقة أمره تنطبق على ما كان يتظاهر به.

اوزاكي:

كان الساتر الذي اتخذه اوزاكي (وهو مواطن ياباني من أسرة نبيلة) خلال عمله لصالح الاتحاد السوفياتي في الصين هو نفسه الساتر الذي استخدمه في طوكيو وهو «العمل الصحفي». وقد جاء هذا الساتر استمراراً طبيعياً للمجالات التي يهتم بها، كما كان يتفق مع ثقافته الواسعة وخبرته التي يعتمد عليها في شؤون اليابان والصين ومعظم دول منطقة جنوب شرقي آسيا الأخرى، (وله خمس مؤلفات في العلاقات اليابانية الصينية).

والجدير بالذكر أن الدافع الذي جعله يعمل في خدمة موسكو، هو نفس الدافع الذي وقف وراء قبول سورج لنفس العمل، وهو الايمان بالمبادئ الشيوعية. وتقف الانجازات التي حققها اوزاكي خلال عمله بالشبكة على قمة الأعمال التي حققها جميع أعضائها. بما فيهم سورج نفسه.. إلا أن طبيعة الدور الذي قام به رئيس الشبكة من حيث قيامه بتجنيد اوزاكي وكثير من الأعضاء وتوجيه أعمالهم، والإشراف على وضع كل الخطط

الخاصة بتشغيلهم وتمويلهم وحمايتهم، فضلاً عن حصوله على معلومات قيمة من السفارة الألمانية وبعض المصادر الأخرى، هي التي ميزت أعماله وأعطته هذه الميزة التي فاقت كل ما عرف عن اوزاكي.

تولى اوزاكي مناصب رفيعة في الحكومة اليابانية مكنته من الحصول على معلومات على جانب كبير من الأهمية والخطورة، أفاد بها الشبكة إفادة لا تقدر بثمن. وأهم هذه المناصب التي تولاها ما يلي:

أولاً: سكرتير أول مجلس الوزراء الياباني (المستشار الإداري الخاص لرئيس الوزراء وهو أعلى منصب استشاري في اليابان).

ثانياً: مستشار اللجنة الوزارية التي تشرف على العلاقات الصينية اليابانية.

ثالثاً: رئيس إدارة مباحث سكك حديد منشوريا الجنوبية. وقد كان ذلك يخوله الاشراف على تقارير المخابرات الواردة من منشوريا، ومعرفة أي قرار ياباني محتمل لغزو سيبريا.

رابعاً: هناك شيان آخرا لا يعتبران مناصب حكومية بالمعنى الشائع، ولكنهما حققا نفس التسهيلات التي أفادت الشبكة وهما اشتراكه بصفة دائمة فيما كان يعرف حينئذ بجماعة الافطار التي تتكون من رئيس الوزراء وكبار رجال الحكومة الذين يتشاورون في أدق الشؤون اليابانية، فضلاً عن عضويته في هيئة تحرير الجريدة اليابانية الواسعة الانتشار.

فوكولويتش:

اشترك فوكولويتش - وكان ضابطاً سابقاً في الجيش اليوغوسلافي - مع سورج وأوزاكي في اتخاذ العمل الصحفي سائراً لهم. فقد كان مراسلاً لجريدة فرنسية وأخرى يوغوسلافية. ويتميز الدور الذي قام به في الشبكة بأهمية خاصة حيث تولى شؤون التصوير الفوتوغرافي بكل متعلقاته، فضلاً

عن حصوله على منصب مراسل وكالة الأنباء الفرنسية الرسمية «هافاس» في طوكيو، وهو مركز شبه دبلوماسي في السفارة الفرنسية، أتاح له القيام باتصالات واسعة بأعضاء السفارات الفرنسية والبريطانية والأميركية لمعرفة آراء بلادهم تجاه الأحداث السياسية والعسكرية المعاصرة.

وقد ازدادت قيمة هذه الاتصالات بازدياد الثقة التي حظي بها فوكولويتش لديهم، والتي نبعت من اعتقادهم بأن له نفوذاً واسعاً بين الأوساط المختلفة، يمكنه من الإدلاء بالآراء والتوقعات التي أثبتت الوقائع اللاحقة لها صدقها. والواقع أن هذه الثقة كانت نتيجة لمجهودات الأعضاء الآخرين الذين أمدوه عن عمد ببعض المعلومات الصحيحة التي حصلوا عليها من ملفات الوزارات اليابانية لتدعيم مركزه بينهم وتمكينه بالتالي من الحصول على معلومات ذات قيمة في مقابل تلك التي يدلي بها، عملاً بالمثل القائل بأن «العمل الناجح هو الذي يكون نفسه مصدراً للمعلومات».

كلاوزن:

اختلف الساتر الذي اتخذته كلاوزن لإخفاء حقيقة نشاطه عن مثيله لدى جميع الأعضاء الآخرين. فقد جند رؤساؤه أن يعمل في ميدان الأعمال الحرة، تمهيداً لقيامه بدور أساسي في الشبكة وهو الاتصال اللاسلكي بالأجهزة المركزية في الاتحاد السوفياتي. وقد تم اختياره لهذه المهمة من بين كثيرين غيره نظراً لأنه كان بالفعل أكفأ عامل لاسلكي لدى المخابرات السوفياتية. وكان سورج وراء الإصرار على اختياره رغم زواجه من إحدى الروسيات البيض المعاديات للنظام الشيوعي.

نجح كلاوزن في تقديم خدمات طيبة في كلا العملين اللذين تولاهما. فبالإضافة إلى نشاطه وابتكاراته في ميدان الأجهزة اللاسلكية، والتي سهلت وسائل نقل المعلومات التي تم الحصول عليها وإدماجه حسابات الشبكة ضمن ميزانيات أعماله التجارية، قام بالاشتراك مع باقي أعضاء الشبكة بإنشاء

شركة مزودة بمطابع وآلات المانية استطاعت الحصول على حق كتابة مطبوعات الحكومة اليابانية وطبع خرائطها البحرية وكثيراً من التصميمات السرية الأخرى.

مياجي:

أما «مياجي» فقد كان فناناً يابانياً هاجر الى الولايات المتحدة حيث فوجئ هناك بالفوارق الشاسعة في مستويات المعيشة بين الطبقات المختلفة، الأمر الذي اجتذب فكره نحو المبادئ الشيوعية وجعله يتحمس لها، وأسفر ذلك في النهاية عن التحاقه بالحزب الشيوعي الاميركي. وأدركت المخابرات السوفياتية نتيجة للنشاط الذي مارسه في صالح موسكو ولجنسيته اليابانية أنه يصلح بدرجة كبيرة لخدمة أهدافها في اليابان، حيث كان يندر توفر نظير له بين فئات الشعب هناك.

استمر مياجي في عمله القديم لأنه أتاح له إقامة اتصالات واسعة بعدد كبير من اليابانيين ذوي النفوذ، بما في ذلك كبار ضباط القوات المسلحة اذ حازت لوحاته شهرة كبيرة نظراً لدقتها وارتفاع مستواها، وهو ما كان له أثر كبير في خدمة أغراض الشبكة سواء بالحصول على معلومات جديدة أو تأكيد معلومات أخرى أو استكمال النقص عن ثالثة. ويظهر بوضوح مما سبق أن السواتر التي اتخذها أعضاء الشبكة الرئيسيون كانت جيدة وإن كان قد بقي شيء آخر يعادل ذلك في الأهمية ويرتبط في نفس الوقت بهذه السواتر، وهو تبرير المقابلات الدائمة التي كانت تتم بينهم لعدم اجتذاب أنظار أجهزة مقاومة الجاسوسية، أو شكوك أعضاء السفارات الغربية. وقد نجحوا في أن يجعلوا هذه المقابلات تتخذ طابعاً عادياً وذلك على الوجه التالي:

- اجتماع الصحفيين الثلاثة (سورج وأوزاكي وفوكولويتش) في الأماكن التي يرتادها عادة الصحفيون والفنانون، وإيهام الآخرين أن صداقتهم ومقابلاتهم المستمرة جاءت نتيجة لاشتراكهم معاً في امتهان العمل الصحفي.

- تدبير اجتماعات بين الصحفيين الثلاثة وبين كل من مياجي وكلاوزن في بعض المتاحف اليابانية والحفلات الرسمية للسفارة الألمانية بحيث تبدو انها نتيجة للمصادفة البحتة التي تطورت بعد ذلك الى صداقة وطيدة، خاصة وأن كلاوزن كان يتردد دائماً على السفارة الألمانية بحكم جنسيته ومهنته، كما كان مياجي يجيد الفن الياباني الذي يقدره باقي أعضاء الشبكة.

- اقامة حفلات ساهرة في منزل سورج بعد اجتياز المراحل التمهيديّة لذلك والتي كانت تتم فيها دراسة كل ما يتعلق بالشبكة وإدارة شؤونها.

وانطلاقاً من هذه السواتر كانت قائمة الاحتياجات التي كلفت الشبكة السوفياتية في اليابان بتحقيقها، والتي تمثلت بما يلي:

أولاً: معرفة ما اذا كانت نوايا اليابان تتجه نحو غزو الأراضي السوفياتية الآسيوية والنوايا الحالية والمستقبلية للحكومة اليابانية تجاه مصالح الاتحاد السوفياتي الأخرى.

ثانياً: الحصول على أية معلومات تتعلق بالقوات المسلحة اليابانية البرية أو البحرية أو الجوية سواء من حيث التسليح أو التعداد أو المواقع أو الإمدادات والتموين فضلاً عن مدى تأثيرها على سياسة الدولة الداخلية والخارجية.

ثالثاً: معرفة الصناعات الثقيلة في القطاعات المختلفة، ومنتجاتها ومواصفاتها الفنية واحصائيات انتاجها وتطورها وعلاقاتها بالصناعات الحربية.

رابعاً: موقف اليابان من الصين ومنشوريا والتحركات المختلفة لقواتها هناك.

خامساً: العلاقات الألمانية اليابانية وأوجه التقارب بين الدولتين.

سادساً: تطور العلاقات بين اليابان وكل من الولايات المتحدة وبريطانيا.

وهكذا اكتسبت هذه الشبكة أهميتها من كبر حجم الانجازات التي

حققتها والتي فاقت جميع أعمال أجهزة المخابرات الأخرى خلال الحرب العالمية الثانية. وقد تميزت هذه الانجازات بارتفاع مستواها لدرجة غير عادية، وتعددها وشمولها لعدد كبير من الموضوعات الهامة. وفيما يلي أهم هذه الانجازات:

- حصول اوزاكي على البرنامج الذي أقرته الوزارة اليابانية والذي يوضح بالتفصيل الخطوط الرئيسية لسياسة اليابان في المجالات السياسية والاقتصادية خلال سنة لاحقة. وقد تأكد سورج من صحته بالاتصال بالسفير الألماني في طوكيو. وقد أوضحت هذه الوثيقة أن النوايا التوسعية لليابان لا تتجه نحو الاتحاد السوفياتي خلال عامي ١٩٣٥ - ١٩٣٦ بل تجاه غزو الأراضي الصينية، كما أشارت الى بعض الحقائق المتعلقة بعلاقة اليابان بألمانيا وانجلترا والولايات المتحدة وفرنسا. وقد أسفرت المعلومات التي احتواها هذا البرنامج عن:

١ - تغيير بعض الخطط العسكرية السوفياتية في سيبيريا وتدعيم الخطط الدفاعية في الغرب.

٢ - تغطية جانب هام من العلاقات بين الدول الكبرى التي يهتم بها الاتحاد السوفياتي، واستخدام سورج وفوكولويتش لهذه المعلومات في توثيق صلاتهما مع السفارات الغربية على أساس انهما وثيقو الصلة بالمصادر الموثوق بها.

٣ - ابلاغ موسكو بتاريخ استيلاء الجيش الياباني على السلطة في فبراير ١٩٣٦، أي قبل حدوثه بنحو شهر حيث كانت العاصمة الوحيدة التي لم تفاجأ بذلك وإبلاغها في نفس الوقت بتوقيت الغزو الياباني للصين.

٤ - الحصول على تفاصيل المحادثات بين ألمانيا واليابان حول عقد اتفاقية عسكرية بينهما، ورغبة الأولى في عقد تحالف مع طوكيو ضد الاتحاد السوفياتي ثم الحصول بعد ذلك على النصوص الكاملة لهذه الاتفاقية بعد ٤٨ ساعة فقط من التوقيع عليها، وقبل تقديمها للوزارة اليابانية وللقيادة العليا

الالمانية. ويلاحظ في هذا الشأن أن كل من سورج وأوزاكي ومياجي قد تعاونوا في الحصول على هذه المعلومات: الأول عن طريق السفير الالمانى والملحق العسكري، والثاني بواسطة رئيس الوزراء، والآخر باتصال بكونلونيل في الجيش الياباني.

٥ - تزويد موسكو بتقارير عن الفرق اليابانية التي أعيد تنظيمها في الصين ومنشوريا واليابان وعن برنامج إعادة تكوين الاسطول الياباني والتركيبات الجديدة بالسفن الحربية.

٦ - التعرف على التصميمات الحديثة للدبابات، وتشكيلات الطائرات الجديدة في الأسراب التي كونت حديثاً ومدى قوتها.

٧ - تزويد موسكو عن طريق الشركة التي كونها كلاوزن بالاشتراك مع باقي أعضاء الشبكة بمطبوعات وكتالوجات الحكومة اليابانية الخاصة بالآلات الصناعية والأسلحة الجديدة وجداول الآلات اللازمة للطائرات المقاتلة وقاذفات القنابل وخرائط البحرية.

٨ - تحذير الاتحاد السوفياتي من الهجوم الالمانى على أراضيهِ في /يونيو ١٩٤١. ويلاحظ أن التوقيت الذي قدرته الشبكة يقل بيومين فقط عن التاريخ الحقيقي للغزو.

٩ - المساهمة في الحيلولة دون هزيمة الاتحاد السوفياتي أمام المانيا بعد تزويد موسكو في الوقت المناسب بمعلومات هامة عن التحركات الالمانية وكذلك قرار الحكومة اليابانية بالتوسع نحو الجنوب وصرف النظر نهائياً عن مهاجمة الاتحاد السوفياتي نتيجة للضغط الذي مارسه قواد الجيش والبحرية عليها.

وبالرغم من هذه الانجازات والنجاحات التي أحرزتها الشبكة السوفياتية في اليابان، فقد تمكن جهاز «الكمبتاي» (الجهاز الرئيسي لمقاومة الجاسوسية باليابان) من القبض على أعضاء الشبكة بمعظمهم بعد أن شعرت اليابان

بتسرب المعلومات السرية جداً الى الخارج، وبالتحديد الى الاتحاد السوفياتي. وبعد المراقبة الدقيقة والدائمة وقع عناصر الشبكة في قبضة «الكمبتاي» حين أعدم معظمهم بعد أن كان الاتحاد السوفياتي قد نخر النخاع الياباني نخرأ، وفات الأوان، ولم يعد للندم جدوى.

المراجع

- ١ - د. حمدي مصطفى. «حرب الجاسوسية» دار الوثبة. دمشق. ص ١٩ - ٣٤.
- ٢ - حافظ ابراهيم خيرالله. «الاستخبارات السوفياتية». بيروت ١٩٧١. ص ١٨.
- ٣ - سعيد الجزائري «المخابرات والعالم» ص ٨٢ - ١٠٤.
- ٤ - كيرت سينجر «أعلام الجاسوسية العالمية» ترجمة بسام العسلي. ص ١٩٥ - ٢١٦.
- ٥ - أحمد هاني «الجاسوسية بين الوقاية والعلاج». ص ٥٠.
- ٦ - كبار جواسيس الحرب العالمية الثانية. بإشراف ألبر دي مازيير. بالتعاون مع جان مارسياك ولويس غاروس. منشورات ريب (RYB). جنيف ١٩٧٨ (باللغة الفرنسية).

المخابرات السوفياتية تتغلغل في نخاع فرنسا

احتلت فرنسا مكانة هامة عبر تاريخها الطويل حتى الحرب العالمية الثانية التي انتقلت فيها زعامة العالم الى الجبارين المتمثلين بكل من الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي... إلا أن الامبراطورية الفرنسية كانت الحقل الجيد والواسع لكي يمارس فيه الاتحاد السوفياتي جاسوسيته المتفوقة والمتطورة، وخصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية، حتى أصبحت تحتل المرتبة الأولى في اهتمام المخابرات السوفياتية على أساس مناهضتها المبكرة للنظام الروسي الجديد بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧، وكذلك تمتعها بمكانة دولية كبيرة في فترة ما بين الحربين، الأمر الذي دفع موسكو الى تركيز نشاط أجهزة مخابراتها فيها معتمدة في ذلك بصفة أساسية على الحزب الشيوعي الفرنسي الذي يتمتع بنفوذ واسع في الداخل، وعلى العملاء الآخرين الذين استغلت الوسائل المعروفة في تجنيدهم. ورغم تحول الاهتمام الأساسي للأجهزة السوفياتية من فرنسا الى ألمانيا بعد تولي الحزب النازي للحكم عام ١٩٣٣، فقد استمرت الأجهزة السوفياتية في اهتمامها بالساحة الفرنسية والإبقاء على نشاط عملائها فيها. وهنا لابد من الإشارة الى الدور الذي لعبه رئيس هذه الشبكة الجاسوسية التي عرفت «بالأوركسترا الحمراء» وهو «ليوبولد تريبار» الذي يعتبر دماغ هذه الشبكة ومحركها دون انكار الدور الهام لبقية أعضائها الآخرين.

فما هو سر هذه الشبكة؟ ومن هم قادتها؟.

كان «ليوبولد تريبار» يهودياً من بولندا، ويمتد تاريخ انضمامه

للمخابرات السوفياتية الى ما قبل نشوب الحرب العالمية الثانية بوقت طويل، وقد استطاع بفضل ذكائه وحسن تصرفه وقدرته على مواجهة الظروف الطارئة. وفضلاً عن ولائه للشيوعية فقد كسب ثقة المسؤولين في الحكومة والحزب والمخابرات السوفياتية الى الحد الذي دفعهم الى تعيينه مديراً مقيماً لكافة الشبكات الاستخبارية السوفياتية في دول غرب أوروبا.

وتعتبر سياسة الحكم النازي المعادية لليهود علناً أحد الدوافع التي حركت جهود تريبار للعمل ضد المانيا حيث وقفت على قدم المساواة مع الدوافع الأخرى إن لم تكن تفوقها بعد أن ضاعف نشاطه للحصول على المعلومات التي تكفل في النهاية هزيمة المانيا والقضاء على النظام النازي فيها، كما سعى أيضاً الى تجنيد كثير من اليهود من جنسيات مختلفة وضمهم للشبكة للعمل على تحقيق نفس الهدف. وقد تميزت بعض أعمال تريبار بالجرأة والابتكار. ومن أبرز الأمثلة على ذلك قيامه باستغلال صلاته بقنصل المجر في بلجيكا (وكانت العلاقات بين المانيا والمجر طيبة) في اصطحابه خلال قيامه بتفقد أحوال رعايا بلاده في فرنسا بعد اقناعه بأن متابعة فروع شركة الملابس الواقية من المطر هناك يقتضي ذلك، وقد تم بالفعل تنظيم رحلة مشتركة الى المناطق التي تدور فيها المعارك بين القوات الالمانية والفرنسية. وخلال هذه الرحلة قام تريبار بتعطيل السيارة المدنية التي كان يستقلها مع مرافقيه وانتقل الى سيارة المانية قامت بالانتقال عبر الخطوط الالمانية ومراكز الحشود الخاصة بها. وقد تمكن تريبار خلال هذه الجولة من كتابة تقرير مطول عن استراتيجية هتلر في الحرب الخاطفة وعن طرق تعزيز القادة الالمان لقواتهم وكيفية إدارتهم للمعركة والدور الذي كانت تقوم به قوات العاصفة للقضاء على الدفاع المضاد للمدرعات المعادية.

اتخذ المدير المقيم للشبكة «تريبار» من فرنسا مقراً رئيسياً لها نظراً لأهميتها وموقعها الجغرافي في وسط دول غرب أوروبا (التي تعتبر المجال الأساسي لتحرك الشبكة). وقد اعتمد في تنظيمها على كثير من العملاء الذين

كانوا مجندين بالفعل لصالح الاتحاد السوفياتي وينتمون الى الشبكات المختلفة التي كانت تمارس نشاطها في ذلك الوقت، فضلاً عن العملاء الذين قام بتجنيدهم بالتعاون مع الأعضاء الرئيسيين للشبكة.

أما فيما يتعلق بالسواتر التي اتخذها أعضاء فرع الشبكة في فرنسا لتغطية حقيقة نشاطهم والعمل من خلالها على تحقيق الأهداف المحددة، فقد انحصرت بصفة أساسية في النشاط التجاري والعمل الصحفي. وكان الساتر الأخير يستخدم بكثرة في فترة ما قبل الحربين العالميتين نظراً لما يتيح من مرونة وتغطية مناسبة لمن يمارسه. وقد قامت المخابرات السوفياتية بالفعل بإيفاد عدد كبير من العملاء الى فرنسا ليعملوا كمراسلين صحفيين، كما قامت أيضاً بتجنيد عدد من الروس البيض الذين هاجروا اليها للعمل في نفس الميدان مستغلة استمرار ارتباطهم بالوطن الأم وعطف بعضهم على النظام الشيوعي الجديد (خاصة بالنسبة للجيل الثاني من المهاجرين).

استمر بعض العملاء في استخدام السواتر المختلفة بما فيها العمل الصحفي بعد أن تولى تربيار الإشراف على نشاطهم. إلا أنه لجأ الى التوسع في استخدام النشاط التجاري كساتر رئيسي نظراً لما يتيح من إشراك أكبر عدد ممكن من العملاء فيه فضلاً عن كفالة حرية الحركة والانتقال الى المدن والدول المختلفة لمباشرة الإشراف على فروع الشبكة (الشركات) فيها وتنفيذ أهدافها الكثيرة، وقام تربيار لذلك بالتعاون مع زملائه بتأسيس «شركة سيمكس» للإستيراد والتصدير والتي اتخذت مقراً لها في شارع الشانزيليزيه، كما قام بفتح عدة فروع لها في مرسيليا وعدة مدن أخرى.

قامت هذه الشركة بالتعامل مع السلطات الألمانية في فرنسا بتنفيذ بعض الأعمال الخاصة بالقوات الألمانية. كما تمكن تربيار وبعض العملاء الآخرين من الحصول عن طريقها على تصريحات رسمية لدخول المناطق الألمانية المحرمة والتي تشمل تحصينات ومبانٍ سرية، الأمر الذي أتاح لفرع الشبكة في فرنسا الحصول على معلومات هامة عن تحركات ومواقع القوات

الالمانية في الأراضي الفرنسية وخططها التكتيكية والاستراتيجية فضلاً عن بعض الانجازات الأخرى. وكان من بين مجموعات العملاء السوفيات التي انتظمت تحت إشراف تريبار بعد توليه لمنصبه الجديد، مجموعة «هنري روبنسون» الذي كان، مؤسساً لجمعيات الشباب الشيوعي في فرنسا ورئيساً للقسم السري في الكومنترن. وكذلك «فاسيلي وأنا ماكسيموفيتش» وهما شقيقان أرستقراطيان من الروس البيض اللذان هاجرا الى فرنسا مع والدهما حيث اعتنقا الشيوعية وعملا لصالح المخابرات السوفياتية. وقد قامت هذه المجموعة بوضع عملاتها من السياسيين وموظفي الحكومة والعمال الفرنسيين والالمان في خدمة تريبار الذي تمكن مع هذه المجموعة وباقي أعضاء الشبكة من إمداد موسكو بمعلومات هامة عن المانيا وبريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا وذلك على النحو التالي:

- اشتغال فاسيلي ماكسيموفيتش كمترجم لأحد القادة الالمان المتواجدين في فرنسا وقيامه بنقل كل ما يراه أو يسمعه أو يصوره الى تريبار.

- عقد فاسيلي ماكسيموفيتش خطوبته على إحدى الالمانيات العاملات بمقر القيادة العليا الالمانية في باريس وحصوله منها على جميع الوثائق السرية الخاصة بالقوات الفرنسية والالمانية في فرنسا وسياسة الحكومة الفرنسية في الداخل والخارج واتجاهات الرأي العام الفرنسي.

- افتتاح أنا ماكسيموفيتش التي كانت تعمل كطبيبة للأمراض النفسية لإحدى العيادات في المنطقة التي تقع بين الأراضي الفرنسية المحتلة وغير المحتلة، وقد اتخذت هذه العيادة مقراً لاجتماع العملاء وتزويد من ليس لديه بطاقات تموينية بالمواد الغذائية. وقد تمكنت الشبكة بهذه الوسيلة من الحصول على معلومات هامة عن القوات الالمانية في فرنسا وغيرها، وكان من بين مصادرها بعض الضباط الالمان الذين كانوا يترددون على هذه العيادة وإحدى الطبيبات التي تعمل فيها «كان أخوها يشغل منصب مدير شؤون اليهود في فرنسا».

- تعيين احدى الالمانيات وهي «كات فولكيز» (التي كانت تعمل بالرقص وقامت بزيارة موسكو بعد إفلاسها حيث جندت في المخابرات السوفياتية وتم تدريبها وإرسالها الى فرنسا) في منصب سكرتيرة لأحد المسؤولين الالمان واستطاعت عن هذا الطريق تزويد الشبكة بمعلومات هامة عن القطاع الذي كانت تعمل فيه وعن اتصالات ومحادثات رؤسائها وزملائها.

- تغلغل الشبكة في بعض الأوساط الالمانية والفرنسية الهامة وتمكينها من تعيين وتجنيد بعض الموظفين والفنيين في تلك الأوساط ومن بينهم:

١ - عميلان في الاسترال الالمانى بباريس وقد أمدا الشبكة بكثير من نصوص المحادثات التي أجريت بين برلين وباريس.

٢ - أحد المهندسين العسكريين الالمان وكان معادياً للنظام النازي وقد أمد تريبار بمعلومات هامة عن الهجوم الالمانى على الأراضي السوفياتية.

٣ - اثنان من المترجمين كانا يعملان في هيئة موظفي القيادة الالمانية في باريس وقد قاما بتحقيق مكاسب كبيرة للشبكة خاصة فيما يتعلق بالأنباء المتصلة بتسليح القوات الالمانية وتحركاتها ومواقعها.

أما فيما يتعلق بالوسائل التي كان يتم عن طريقها نقل المعلومات الى موسكو فقد انحصرت في عدة طرق رئيسية أهمها:

- استخدام أجهزة اللاسلكي الخاصة بالشبكة في فرنسا أو بلجيكا كوسيلة أساسية.

- إرسال المعلومات عن طريق أجهزة الحزب الشيوعي الفرنسي أو السفارة السوفياتية في باريس ولم يكن يتم ذلك إلا في حالات الضرورة القصوى (كما هو الحال في استخدام تريبار جهاز اللاسلكي الخاص بالملحق العسكري السوفياتي في باريس في إرسال المعلومات العاجلة المتعلقة بتاريخ غزو القوات الالمانية).

- حاملي الرسائل Courriers وكان هناك أحد الأفراد المختصين بنقل هذه المعلومات داخل وخارج فرنسا. إلا أن هذه الطريقة كانت تستخدم قليلاً نظراً لعدم وجود تأمين كافٍ لها.

إلا أن الأهمية الكبرى التي تعادل في قيمتها تلك التي تميزت بها شبكة ترينار، فإنها تتمثل بما أحرزته أيضاً واحد من أهم الجواسيس الروس المقيمين في فرنسا، والمسجل في ملفات الجاسوسية الروسية تحت اسم «غامبان».

فلما سارت فرنسا في طريق الأبحاث الحديثة وأصبحت تساهم مساهمة مهمة في حقل الطيران النفاث والصواريخ الموجهة والأبحاث الذرية، قررت المخابرات العسكرية في موسكو أن توسع دائرة جاسوسيتها في فرنسا، وكان «غامبان» الذي جاء إلى باريس عام ١٩٥٦ قادماً من مراكش، من أبرز الذين خدموا السوفييات في هذا المجال. لم يكن «غامبان» من مواليد فرنسا، بل كان روسياً، ولد عام ١٩٢٣ في «تيليسي» عاصمة جمهورية جورجيا السوفياتية، من أب أوكراني وأم من جورجيا. وكان اسمه الحقيقي «فلاديمير اغناتوفتش بودارنكو»، ويعود مظهره الفرنسي إلى كون والدته من جورجيا. وهذا أحد الأسباب التي دعت قسم التجنيد في القيادة العامة للمخابرات في موسكو إلى اختياره للعمل في فرنسا.

دخل بودارنكو معهد ستينايا للجاسوسية الخاص بالدول اللاتينية عام ١٩٤٦. ومنذ ذلك الحين أصبح يعرف باسم «غامبان» وكان رقم تسجيله ف- ٤٦١٧٠٧ / ٠٠٠٤٢. . . . وعندما أصبح «غامبان» مهيباً للعمل في فرنسا عام ١٩٥٦، أرسل إلى مارسيليا على ظهر باخرة شحن سوفياتية ونزل في فندق صغير هناك. بعد أسبوع، ذهب غامبان إلى تولوز، حيث ادعى أنه ولد فيها عام ١٩٢٢.

كانت أوراق الهوية التي حملها غامبان هي لعامل سلافي وجد قتيلاً في معمل قصفته القنابل قرب بريسلو خلال الزحف الروسي إلى ألمانيا. وقد أخذ

المرشد السياسي هذه الأدوات وأرسلها الى موسكو حيث أجرت القيادة العامة للمخابرات سلسلة من التحريات لمعرفة ما اذا كانت أوراق هوية الرجل الميت صالحة للإستعمال في المستقبل، وقد توصلت الى نتائج ايجابية بهذا الصدد.

كانت الأوامر مع غامبان تقول أن عليه أن يذهب الى مراكش الفرنسية، ويعود الى فرنسا فيما بعد. وكان كل شيء معداً لهذه الرحلة حيث زودته المخابرات الروسية برسائل حقيقية من الرجل الذي سيعمل غامبان عنده في مراكش. لم تطل إقامة غامبان في مراكش، فعاد بعد عشرين يوماً الى فرنسا. وفي أيلول ١٩٥٦ بدأ في تنظيم حلقة للجاسوسية في باريس. بحث عن محترف ملائم لأنه قرر أن يعمل متخفياً كفنان ومصور. وقرر كذلك أن يستأجر شقة في منطقة راقية من باريس وينشيء فيها وكراً للدعارة السرية. وقد جهز غامبان الشقة بأجهزة للصوت متصلة بمسجلات مخفية، ودرب، المومسات على كيفية تشغيل الآلات السرية اللاقطة للصوت، ووعدهن بأجور مرتفعة للتسجيلات مهما كانت قيمتها. وقال لهن أن هذه التسجيلات سوف تباع الى مؤسسات صناعية كبيرة يهمها معرفة الأسرار الصناعية عن المؤسسات المنافسة لها. وقد نظم غامبان جهازاً من القوادين مهمتهم استجلاب التقنيين والصناعيين والمهندسين الى وكر الدعارة.

وفي تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٦، أرسل غامبان تقريراً الى موسكو يقول فيه أنه قد وجد محترفاً ملائماً لجعله مقرأً عاماً لعملياته، وبعد مدة وجيزة كتب الى رؤسائه يقول: «... ليس من الضروري في معظم الحالات أن أستعمل الوسائل «العنيفة» لاستجلاب المساعدين هنا. إن عدداً كبيراً من المهندسين والكتبة السريين في مؤسسات الأبحاث، والعلماء والتقنيين والمدراء والضباط وجنود الجيش والبحرية والطيران في فرنسا يكونون عطفاً كبيراً في قلوبهم على الاتحاد السوفياتي. وقد وافق العديد منهم على العمل لصالحنا. إنه من الأسهل التعاون مع الرجال أكثر مما هو مع النساء...».

هذا وتشير السجلات الاستعلامية في موسكو أن غامبان هو «أذكى العملاء وأكثرهم نشاطاً وأنه زود المخابرات الروسية بالمعلومات أكثر من أي جاسوس آخر في فرنسا في ذلك الحين».

وفي الوقت الذي أرسل فيه غامبان الى فرنسا، كانت التعليمات التي يحملها تطلب منه التركيز على التجسس الصناعي، لكنه نشط في الحقل العسكري عندما عثر على مخبرين في القوات المسلحة الفرنسية... والمؤسسات الأخرى التابعة لها والمتخصصة باختراع وإنتاج الأسلحة العسكرية السرية.

وكان أسلوب غامبان لضرب المواعيد مع عملائه بسيطاً للغاية. فقد كان يضع إعلاناً في الزاوية الشخصية في جريدة باريسية، حيث يقول الإعلان مثلاً: «رسام شاب بحاجة الى موديل»، يلي ذلك عنوان محترف غامبان. عند قراءة هذا النص، يعرف عميل معين أن عليه مقابلة الجاسوس الماهر في الساعة الواحدة من اليوم التالي في كاتدرائية نوتردام. وإذا كان الإعلان يقول: «مصور شاب بحاجة الى موديل»، فهذا يعني أن الموعد هو في الساعة الثالثة والربع بعد الظهر في نوتردام، لأن كلمة «مصور» كانت الكلمة المتفق عليها لتحديد الوقت. أما اذا ظهر إعلان غامبان في زاوية «الأغراض المعروضة للبيع»، يكون عميل آخر هو المعني بالأمر فيعلم بذلك المكان والزمان الذي عليه أن يقابل رئيسه فيه.

كل عميل يعلم في أية زاوية وفي أية جريدة عليه أن يفتش ليعرف ما اذا كان مطلوباً أم لا. وكان غامبان يؤكد في تقاريره العديدة الى القيادة العامة في موسكو «أن أسلوب الاتصال بواسطة الإعلان في الجرائد يثبت باستمرار أنه أفضل أساليب الاتصال».

ولكن رغم حذر غامبان، اضطر الى أن يوقف نشاطه كجاسوس روسي في فرنسا عندما تورط صدفة في حادث سرقة كان بريئاً منه. ولم تكن موسكو مستعدة أن تجازف به، فأرسلت تستدعيه الى وطنه.

ومن المؤكد أن غامبان لم يكن وحيداً هناك، ولم يكن أول الجواسيس السوفيات ولن يكون آخرهم، بل إن الساحة الفرنسية خصبة جداً لأن تعج بأمثال هذا الجاسوس الماهر الفذ الذي أثبت جدارته وكفاءته المخبرانية على أكثر من صعيد متجاوزاً تعليمات قادته في موسكو الى ما هو أهم وأكثر فائدة.

ومع كل تسرب خبر الى المخابرات السوفياتية، كانت فرنسا تشعر بأن تياراً كهربائياً يسري في أعصابها وشرائينها وحتى في نخاعها الشوكي، فتصاب عندها بغيوبة، سرعان ما تستفيق منها على هدهدات الأشباح والعمالقة، لتجد نفسها أمام «مخابرات الكرملين» التي تحصي عليها الأنفاس وتمنعها من ممارسة عملية التنفس الطبيعي، حتى في عقر دارها، مجبرة كل هذه العمليات التجسسية لمصلحة الشعوب الطامحة للحرية والاستقلال. والشعوب المناضلة هي المنتصرة في النهاية رغم كل جبروت القوى الاستعمارية وادعاءاتها التفوقية.

المراجع

- ١ - د. حمدي مصطفى «حرب الجاسوسية» دار الوثبة. دمشق. ص ٣٥ - ٤٢.
- ٢ - ج. برنارد هاتون «مدرسة الجواسيس» ترجمة غسان درويش. بيروت ١٩٦٣. ص ١٨٣ - ١٨٧.
- ٣ - «كبار جواسيس الحرب العالمية الثانية» بإشراف ألبي دي مازيير بالتعاون مع جان مارسياك ولويس غاروس. جنيف ١٩٧٨. ص ١١ - ١٠٧. (باللغة الفرنسية).

المخابرات السوفياتية تتغلغل في نخاع المانيا

لقد احترف الاتحاد السوفياتي أسلوب التغلغل في نخاع الدول الغربية أو ما يسمى بدول العالم الحر، كما في شرايينها وأعصابها، في الوقت الذي تجد نفسها فيه عاجزة عن المقاومة.

وعندما كان بعض الدول يدخل عالم العصرية عن طريق تدريب مهندسين وإقامة مراكز أبحاث لتطوير التكنولوجيا، كان البعض الآخر يجد أن الطريق الأسهل للحصول على تقنيات العصرية والتطور هو تدريب الجواسيس. وقد تبين أكثر من مرة أن الاتحاد السوفياتي يركز كثيراً على الأسلوب الثاني، بحيث قدم من المانيا الغربية في أواخر شهر سبتمبر ١٩٨٤، مثلاً جديداً على براءة السوفيات في التجسس الصناعي، أثار فضيحة أقامت المانيا ولم تقعهدها، عبر أحد عملائهم والمدعو «مانفرد روتش».

و«مانفرد روتش» هو مواطن الماني شرقي عادي لجأ في عام ١٩٥٤ كغيره من مواطنيه الى المانيا الغربية يوم كان التهافت كبيراً قبل بناء جدار برلين في ١٩٦١. وهناك وجد «روتش» عملاً في شركة «جنكرز» للهندسة استمر عشر سنوات. وفي سنة ١٩٦٤ انتقل «روتش» الى شركة «مسز شميث» أكبر شركات صناعة الطيران في المانيا الغربية. ورويداً رويداً بدأ رصيد المهندس النشط يرتفع حتى وصل به الى مركز مدير قسم التخطيط والإنماء. هناك، استمر «روتش» يعمل بإخلاص ويحوز على ثقة المسؤولين وهو فوق كل الشبهات. ودون أن يعلم أحد أن الرجل يمارس عملاً إضافياً لصالح

المخابرات السوفياتية التي اتصلت به منذ العام ١٩٦٧. ومن ١٩٦٧ الى ١٩٨٤ استمر روتش في خدمة صاحبة الجلالة الـ «ك. ج. ب»، ولم يشك مكتب مكافحة التجسس في بون في رحلات روتش الى النمسا ونزهاته الكثيرة وحيداً في الحدائق العامة إلا في أواخر أيلول/سبتمبر ١٩٨٤.

وكانت الفضيحة... وخلال ١٧ سنة كان روتش ينقل بإخلاص كل المعلومات التقنية والخرائط العسكرية الهامة والصور العلمية الى موسكو في شكل ليس له مثيل في المانيا الغربية.

ماذا نقل روتش بالفعل الى السوفيات؟

على الرغم من الكتمان الشديد الذي تلتزمه السلطات الالمانية حول نشاطات الجاسوس، السوفياتي، من المؤكد أن روتش قد حقق انجازات ضخمة للـ «ك. ج. ب» يمكن أن تدخله تاريخ التجسس الصناعي بين الشرق والغرب.

ولمعرفة حجم المعلومات والملفات التي انتقلت الى الاتحاد السوفياتي، يكفي إلقاء نظرة سريعة على نشاطات شركة «مسز شميت». هذه الشركة تعتبر أكبر مؤسسة لصناعة الطيران في المانيا ويغمل فيها نحو ٣٧ ألف شخص وقد بلغ حجم عملياتها في العام ١٩٨٣ حوالي ٥,٩ مليار مارك. والخطير هو أن أكبر اهتمامات مسز شميت هي في حقل الطيران الحربي، إذ أنها تساهم في معظم الأسلحة المشتركة الصنع مع الدول الأوروبية الأخرى. وقد انتقلت أيضاً الى صناعة الطيران المدني.

لذلك، تبدو أضرار فضيحة روتش للوهلة الأولى موزعة على المستوى الأوروبي. ولذلك أيضاً، تبدو اللائحة طويلة جداً، وإذا كان روتش قد حصل على معلومات حول كل ما تتعامل به مسز شميت فيمكن القول أنه لم يعد هناك سر عسكري وتقني متطور في أوروبا إلا ووصل الى موسكو.

من الأكيد أن خرائط طائرة «تورنادو» الحربية ذات الصنع الالمانى -

البريطاني - الايطالي التي تفتخر بها أسلحة الجو في هذه الدول قد وصلت الى موسكو، وبعدها يعتقد أن الجاسوس السوفياتي قد توصل الى تصوير خرائط وملفات تتعلق بطائرة «ايربوس» الأوروبية وصواريخ «هوت» و«ميلان» المضادة للدبابات، وصاروخ «رولان» المضاد للطائرات الذي تمكنت أوروبا من بيعه الى الولايات المتحدة. ويخشى أيضاً أن يكون روتش قد حصل على خرائط مشروع الطوافة الفرنسية الالمانية المضادة للدبابات «ب ٢٥» التي كان من المتوقع أن ينتهي صنعها في بداية التسعينات، وتعتبر مثال فخر الصناعة الحربية الأوروبية. ولا يستبعد بعض المحللين أن تكون موسكو قد حصلت أيضاً على خرائط لصاروخ «اريان» الذي بدأ ينافس كولومبيا في تجارة إطلاق الأقمار الصناعية.

من هنا تبدو قضية روتش خطيرة جداً. وهي قد فتحت سجل التجسس الصناعي السوفياتي وتغلغل جواسيس موسكو في المانيا الغربية. فالمانيا أرض خصبة للتجسس السوفياتي بفعل تاريخها، فهي قد ورثت أكبر شبكة جواسيس سوفيات في العالم على أرضها. ويقال بأن موسكو ومخابراتها الشرقية قد تمكنت من إدخال أكثر من ١١ ألف جاسوس اليها قبل بناء الجدار، وما زالت تدخل أعداداً منهم بواسطة اللاجئين من المانيا الشرقية. وقد تمكن هؤلاء من تبوؤ مراكز حساسة جداً في الدولة.

والجدير بالذكر أن قصة الجاسوس روتش تأتي قبل أن ينسى الالمان قصة «غونتر غليوم» ضابط المخابرات الالمانية الشرقية الذي تمكن من أن يصبح سكرتيراً خاصاً «لويلي براندت» قبل أن يتم اكتشافه في العام ١٩٧٤ ويتسبب بهزة سياسية أدت الى الإطاحة بالمستشار الالمانى الذي اعتذر اليه ليونيد بريجنيف نفسه أثناء زيارة براندت الى موسكو بحجة أن «غونتر غليوم» كان يتجسس لصالح المانيا الشرقية وليس لصالح الكرملين...

بم ستسبب هذه الفضيحة الجديدة؟ الأبعاد الحقيقية لم تبدأ بعد...

الى جانب ذلك، كانت سياسة خروتشيف ترمي الى الإبقاء على المانيا

في حرب الأعصاب ليستطيع أن يفرض عليها «حله للمشكلة الألمانية» عاجلاً أم آجلاً، لذلك رأى أن تحتفظ المخابرات الروسية بجهاز واسع من الجواسيس المقيمين والعملاء في الرايخ السابق. فالكرملين بحاجة الى أن يعلم كل ما يجري في المانيا الغربية في الحقلين العسكري والحياة اليومية الروتينية.

يعمل الجواسيس الروس - المدربون تدريباً كاملاً في مدرسة «براخوفكا» والحائزون على أوراق هوية المانية - يعمل هؤلاء ليس فقط في برلين الغربية بل في القطاعات الاميركية والبريطانية والفرنسية من المانيا الغربية أيضاً. والسلطات الألمانية التي تعلم بهذا الأمر، تملك قوة كبيرة من الرجال المدربين على تعقب الجواسيس.

وبالرغم من أن أعداداً كبيرة من الجواسيس الشيوعيين يعتقلون ويقدمون الى المحاكمة، فإن الجهاز الألماني المضاد للجاسوسية نادراً ما يستطيع أن يقبض على الجواسيس الروس. هذا وتعتبر موسيكو أن الجاسوسة الماهرة «ماريان» هي أهم من عمل لروسيا في المانيا. وصلت «ماريان» الى «فرانكفورت - آم - ماين» في شهر مايو عام ١٩٥٨. واسمها الحقيقي «ناديزدا ميخيلوفنا ماكاريففا». ولدت عام ١٩٢٥ في خاركوفا وهي ابنة زعيم نقابي روسي.

عندما بلغت ناديزدا عامها الثاني والعشرين وكانت تدرس آنذاك الاقتصاد في جامعة موسكو، صنف على أنها «صالحة للتدريب الخاص». فمّرت، كغيرها من الجواسيس، بمراحل التدريب المعتاد وانتهى بها المطاف الى «معهد براخوفكا» حيث ألحقت بقسم المانيا ومنحت اسم «ماريان» وكان رقم تسجيلها ج - ٤٧٣٩٠٣ / ٠١٨ - ب. نجحت ماريان نجاحاً باهراً في امتحاناتها بعد عشر سنوات من التدريب في براخوفكا، فأرسلت الى برلين الشرقية وتسلمت من هناك في ابريل ١٩٥٨ الى القطاع الغربي من العاصمة الألمانية السابقة. كانت أوراق الهوية التي بحوزتها تشير الى أنها قادمة من

القطاع الاميركي من المانيا الغربية وذهابة الى برلين الغربية وكانت تدّعي أنها قادمة الى هناك في زيارة.

اختارت موسكو برلين الغربية كبداية لرحلة ماريان لأنها تريد منها إنشاء شبكة جاسوسية في القطاع الاميركي من المدينة بعد أن تركّز شبكتها في فرانكفورت. أمرتها موسكو أن تسكن لمدة بضعة أسابيع في برلين الغربية لمساعدتها على أن تعتاد على ظروف الحياة هناك. وقد منعت ماريان كغيرها من الجواسيس الجدد، من أن تتعاطى أي نشاط جاسوسي خلال مرحلة التأقلم.

لكن ماريان نشطت خلال إقامتها في برلين الغربية، فدرست قطاعات الحلفاء في المدينة. وكتبت تقول في تقاريرها أنها «شعرت وكأنها في وطنها من لحظة وصولها». ووضعت الجاسوسة الماهرة المتدربة في براخوفكا الخطط لاستعمال المطاعم والأمكنة الأخرى لمقابلة الذين سيصبحون فيما بعد مساعدين لها.

كانت شقراء ومثيرة للغاية، وسرعان ما وجدت أن معظم الرجال يلاحقونها ويدعونها للخروج معهم. فقررت منذ أيام إقامتها الأولى في برلين الغربية أن تستغل مجالها للتعرف على الرجال المهمّين.

وصلت «ماريان» الى فرانكفورت وأقامت في شقة حديثة في بناية بنيت بعد الحرب. ثم فتحت مكتباً للأعمال السكرتيرية معتبرة هذه الوظيفة تغطية رائعة تستطيع بواسطتها استلام البريد والاجتماع بالمساعدين. وقد تعاطت التصوير حتى لا تثير الشبهات حول آلات التصوير الموجودة عندها.

بعد أن أوجدت ماريان تغطية كاملة لها، شرعت بالعمل. كانت قد درست بتمعن حياة الرجال الالمان على اللائحة التي زودتها بها موسكو والتي تحوي أسماء رجال صالحين للعمل. فاختارت منهم الرجال الذين كانوا على علاقة سابقة بالحركة النازية وينكرون ذلك، ففي هؤلاء تتوفر جميع مؤهلات المخبرين أو ضباط الارتباط.

أثبتت مرحلة التأقلم التي قامت بها «ماريان» صحة ما تعلمته في براخوفكا، وهو أن المال يشتري كل شيء في ألمانيا بعد الحرب. فقررت استعمال أسلوب التهديد وتقديم المبالغ الطائلة من المال فحصلت على نتائج من الدرجة الأولى.

لقد نجحت خطط ماريان، فبعد بضعة أسابيع من مجيئها استطاعت أن تجد المخبر الأول. كان هذا الرجل موظفاً في مؤسسة أبحاث لإنتاج الأسلحة السرية وكانت ماريان تحمل رقمه الهاتفي، فاتصلت به في مكتبه وقالت أنه من مصلحته أن يأتي لمقابلتها في مكتبها. وكانت مقنعة للغاية فجعلت الرجل المتخوف من مقابلة غريبة يرضى في النهاية أن يقابلها.

جاء الرجل في الموعد المحدد وصعق عندما طلبت منه ماريان - دون مقدمات - أن يزودها بالوثائق والمعلومات وبجميع ما تحتويه القائمة السرية في المؤسسة التي يعمل فيها، وأضافت أنها مستعدة لدفع مبلغ محترم من المال لقاء ذلك. ولكن عندما قال لها الرجل غاضباً أنه كوطني الماني يرفض أن يزودها بشيء وهددها بتسليمها للشرطة، دعت ماريان الى رفع سماعة الهاتف والاتصال بالشرطة وأضافت أنها ستقدم الاثباتات الدامغة للشرطة الألمانية والسلطات الاميركية على أنه يعيش ويعمل في فرانكفورت مستعملاً أوراق هوية ميت وأنه مطلوب بتهمة جرائم حرب.

حاول الرجل في بادئ الأمر أن ينفي التهم وهددها بأن يقيم دعوى بحقها بتهمة القدح والذم، لكنه رضخ أخيراً عندما ذكرت له تفاصيل عن حياته الخاصة وادعت أن المستمسكات كلها بين أيدي أصدقائها الذين يستطيعون التعرف عليه بسهولة لأنهم عملوا معه في شرطة هتلر السرية.

أرسلت ماريان تقريراً مفصلاً بالشفرة الى رؤسائها في موسكو عن المساعد الجديد، كان يحوي خبراً يقول أن المخبر الجديد تعهد بأن يأتيها في اليوم الثاني بوثيقة هامة ليجري تصويرها. وبالفعل فلإن صورة الوثيقة السرية حول الصواريخ الموجهة أرسلت بعد يومين في الطريق غير المباشرة

الى موسكو. كانت مخبأة في فرشة حملها رسول لا شكوك حوله الى برلين الغربية حيث أرسلت من هناك الى المانيا الشرقية.

اعتمدت ماريان على المخبر الجديد منذ أيام عمله الأولى واعتبرته أحسن مخبر عندها. خلال الأشهر الست الأولى من إقامة ماريان في فرانكفورت، استطاعت أن تنشئ شبكة واسعة من المخبرين وضباط الارتباط والعملاء المكلفين بالمهام الخاصة.

فقد كان جهاز الإرسال اللاسلكي المتنقل الذي تملكه يعمل باستمرار وكذلك المكتب، حيث كان يجري تصوير الوثائق والمستندات. وكما كان المكتب يستلم أيضاً التعليمات المكتوبة بالشفرة، أصبح مكتب أعمال السكرتارية عاملاً مساعداً لماريان حيث كان عملاؤها يصورون المستندات الهامة وكانهم يؤدون واجبات السكرتير النشط. رغم أن ماريان ركزت عملها على تحصيل المعلومات عن الدولة الالمانية الغربية والصناعات فيها، إلا أن شبكتها امتدت الى الأوساط الاميركية في المانيا. وقد أكدت القيادة العامة للمخابرات الروسية أن «المعلومات المستقاة من المراجع الاميركية في المانيا الغربية ذات أهمية قصوى لأنها مكتملة للأخبار المستقاة من المراجع الالمانية الغربية ذاتها»...

أصبحت ماريان على استعداد لتوسيع نشاطها بحيث يشمل برلين الغربية. فأقامت هناك وفتحت مكتباً للأعمال السكرتيرية في شقة محترمة. كان العمل في برلين الغربية أسهل منه في فرانكفورت. فهناك تستطيع ماريان الاعتماد على العديد من العملاء المدربين الذين يأتون يومياً من القطاع الشيوعي في برلين الشرقية للعمل في المنطقة الغربية. ويستطيع هؤلاء العملاء المكلفون بالمهام الخاصة أن يجازفوا، لأنه من السهل عليهم أن يعودوا في الحالات الطارئة الى المنطقة الآمنة.

استمر عمل ماريان في المانيا الغربية حتى أول أسبوع من شهر آذار/مارس عام ١٩٦١. بعد ذلك الحين لم تذكر التقارير في موسكو شيئاً عنها.

والواقع أن هذين الجاسوسين السوفييتيين في المانيا الغربية لم يكونا إلا حلقة أساسية من سلسلة تمثل جيشاً روسياً أحمر في عاصمة الحربين العالميتين .

وقد برهن السوفييات عن عمق واسع في الرؤيا، وعن نظرة ثاقبة لمخاطر إشعال حرب عالمية ثالثة، تشعل شرارتها أيضاً المانيا .

وكان لابد من فرز هذا الجيش القائم بذاته لتلافي الكوارث المزمع وقوعها على يد تلك الدولة التي احترفت عملية إشعال الحروب العالمية، وتحميل البشرية بأجمعها كثيراً من الويلات والمآسي والآلام . وما زالت آثار الحربين العالميتين - الأولى والثانية - ترسم في مخيلة الملايين من البشر الذين عانوا الأمرين منها . وفي الوقت الذي كانت فيه الجاسوسية بمثابة حرب أدمغة لا حرب سلاح ونار، فإن جاسوسية الاتحاد السوفياتي في المانيا الغربية هي حرب على الحرب بحد ذاتها، من أجل انقاذ البشرية من خطر محتمل تسعى اليه دول العالم الحر عبر المانيا نفسها .

وما أروع التغلغل في نخاع «محترف الحروب» وأعصابه، موقفاً ابرة بوصلته الإجرامية، بهدف التأثير على العقل الأطلسي برمته وتعطيله عن التفكير في قضية إبادة الجنس البشري، وبشكل أكثر وحشية وبربرية من تلك التي عرفتھا مدينتا هيروشيما وناغازاكي اليابانيتان في نهاية الحرب العالمية الثانية .

وإذا كانت دول حلف شمالي الأطلسي جديرة بإشعال الحروب العالمية، فليس هناك أجدر من الاتحاد السوفياتي في حمل لواء السلام والدفاع عن كل الشعوب الموضوعة على اللائحة السوداء للإمبريالية العالمية . من بقاء العالم . لذلك فقد جهدت في سبيل تفكيكه وانهيائه، ونجحت أخيراً في الوصول الى الهدف والمبتغى .

المراجع

- ١ - مجلة «الوطن العربي» الباريسية. العدد ٣٩٩. الجمعة من ٥ الى ١١ تشرين أول/ اكتوبر ١٩٨٤. ص ٤٢.
- ٢ - ج. برنارد هاتون «مدرسة الجواسيس» ترجمة غسان درويش. المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر. بيروت ١٩٦٣. ص ١٨٨ - ١٩٤.
- ٣ - د. حمدي مصطفى «حرب النجاسوسية» دار الوثبة. دمشق. دون تاريخ. ص ٤٥ - ٥٠.

المخابرات السوفياتية تتغلغل في نخاع كندا

منذ ظهور الاتحاد السوفياتي الى الوجود، اعتبر زعماءه أن الجاسوسية، بأية صفة وشكل من أهم الأسلحة التي يعتمد عليها، وبالتالي فقد فعلوا كل شيء من أجل إنشاء منظمة من شأنها أن تتفوق على أية دائرة استخبارات في العالم، إذ أن الهم الاستخباراتي في الاتحاد السوفياتي كان على رأس لائحة الهموم التي كانت تمثل الهاجس الأكبر لزعماء روسيا باعتبار أنها كانت تطمح الى تبوؤ المركز الأول في هذا المضمار عبر النفاذ الى معرفة كل ما يتعلق بأعدائها أكثر من معرفة هؤلاء الأعداء، حتى عن أنفسهم هم.

وقد تمكنت موسكو أن تفاخر عن حق وحقيق بأنها تملك أضخم وأكفا شبكة جاسوسية في العالم. وإحدى أفطع القضايا في تاريخ الجاسوسية الدولية هي بدون منازع قصة «آيلين»، العانس الانكليزية التي سافرت من انكلترا الى كندا لتفتح متجرأ صغيرأ في أوتاوا.

فما هو سر قصة «آيلين» هذه؟ ولماذا اختارتها الاستخبارات السوفياتية للعمل في كندا؟.

كانت «آيلين» انكليزية الطبع الى درجة أن أصدقاءها الكنديين والزبائن الذين كانوا يترددون الى متجرها، يسخرون من طريقة السلوك «الاكسفوردية» عند هذه المرأة العادية ذات العمر غير المؤكد. لكنها كانت محبوبة. وكان يتردد العديد من الزبائن الى متجرها الصغير ذي الطابع الانكليزي.

لكن «آيلين» كانت بعيدة كل البعد من أن تكون انكليزية. كان اسمها

الحقيقي «تانيا ماركوفنا راديونسكا»، وهي ابنة عقيد في الشرطة السرية الروسية. ولدت عام ١٩٢٤ في مورمانسك. وقد أهلتها بيتها لأن ترشح للعمل في المخابرات. وفي سن الواحدة والعشرين، كانت «آيلين» قد اجتازت كل امتحانات التدريب على الجاسوسية، وأصبح اسمها «آيلين» عندما وصلت «غاكزينا» (وهي أكبر معاهد التدريب السوفياتية على التجسس) حيث سجلت تحت رقم ب - ٤٨٠٨٢٢ / ٠٣٩ ج.

تسللت «آيلين» الى انكلترا في مايو عام ١٩٥٨، ومكثت تسعة أيام في كاربيل لتعود نفسها على ظروف الحياة في المملكة المتحدة. ثم انتقلت الى لندن حيث سكنت منطقة «كنغز كروس» مدعية أنها تبحث عن عمل في متجر. ورغم أنها كانت تبدو وكأنها تفعل المستحيل لتحصل على وظيفة ملائمة، كانت تعود كل يوم الى مسكنها قائلة أنها لم تستطع الحصول على عمل.

كان كل هذا مجرد استعداد لمشاريعها في المستقبل. فقد أرسلت لها القيادة العامة للمخابرات في موسكو أوامر بالبقاء في لندن دون القيام بأي نشاط تجسسي والتحضير للسفر الى كندا... ولكي تبرر عزمها على السفر الى كندا، ادعت «آيلين» أنها فشلت في ايجاد وظيفة ثلاثها في لندن.

ففي مناسبات عديدة كانت تقول لصاحبة المنزل وللذين يشاركونها السكن في منزلها أنها قد ضجرت من البقاء عاطلة عن العمل وأنها لا تستطيع إنفاق جميع ما ادخرته. وعندما أعربت عن عزمها في الهجرة الى كندا، شجعها البعض على تحقيق ذلك بما فيهم صاحبة المنزل قائلين أن الحياة هناك أحسن مما هي في انكلترا.

رغم أن «آيلين» اتخذت جميع الخطوات اللازمة للسفر الى كندا، ورغم أن الدائرة الثالثة في الإدارة الخارجية في موسكو زودتها بأسماء «أقارب» و«أصدقاء» كنديين، فالأمر لم تسر بالسرعة المطلوبة. فقررت

«آيلين» أن تترك الأمور تأخذ مجراها الطبيعي ما دامت موسكو مصرة على عدم التسرع حتى لا تثير الشبهات حولها.

ساعدتها مكوثها بدون عمل في لندن من عدة نواح، فخلال أشهر إقامتها في العاصمة البريطانية أصبحت أكثر «انكليزية» من أية فتاة مولودة في انكلترا. وأنشأت صداقات مع فتيات يعملن في المخازن والمكاتب، وكانت هذه الفتيات يشفقن عليها ويدعونها الى منازلهن. لكن هذه لم تتكرر لأن «آيلين» في الواقع فتاة مرحة. وجاء اليوم الذي تركت فيه «آيلين» مسقط رأسها وأبرحت الى كندا حيث وصلت في آذار/مارس ١٩٥٩.

لم تكن الحاجة تدعو لكي تتأقلم هذه الفتاة في البلد الجديد، فكونها مهاجرة اليه يفترض فيها أن تكون غريبة عن الحياة الكندية. ولكن موسكو طلبت منها أن تنتظر أوامر جديدة للبدء في العمل الجاسوسي. فمكثت «آيلين» مدة ستة أسابيع في مونتريال وعملت بائعة في مخبز لتعطي الانطباع عن نفسها أنها مهاجرة عادية.

وعندما وصلتها الأوامر بالتوجه الى أوتاوا، حاولت مديرة المخبر اقناع البائعة القديرة بالبقاء لكن «آيلين» ادعت أن لها عمة في أوتاوا قد أصيبت بمرض مفاجيء وهي بحاجة اليها.

استأجرت «آيلين» شقة ثمينة عند وصولها الى المدينة الغربية وادعت أن عمتها قد توفيت وتركت لها مبلغاً كبيراً من المال. وهكذا استطاعت منذ الأسبوع الأول من إقامتها في أوتاوا أن تجد أول مساعد لها حيث كانت قد قابلته في مطعم. واكتشفت بعد أول كلمات تبادلتها معه أنه يجب الاجتماع بأناس قدموا حديثاً من انكلترا. فقررت أن تستعمله. وكتبت في رسالة لها بالشفيرة الى موسكو: «وقلت له بأنني لا أستطيع استلام الرسائل الشخصية في منزلي، وسألته ما اذا كان يمانع من أن ترسل رسائلني الى عنوانه».

لم يجد الشاب أي شيء غريب في طلب «آيلين»، فوافق. ومنذ ذلك الوقت، أخذت، الرسائل بالشفيرة ورسائل من موسكو تصلها الى صندوق

البريد. صادقت «آيلين» الشاب وراحت تغدق عليه الهدايا لكنها لم تحاول أن تدعوه الى القيام بمهام جاسوسية. فهو لا يستطيع أن يأتي بأية معلومات سرية من مؤسسته وتكليفه بمهام اتصال يكون عملاً انتحارياً لأنه ساذج للغاية ولا بد من أن يشير شبهات الجاسوسية الكندية. فضضلت أن تبقي على جهله للأمر واستعماله «كصندوق بريد» دون أن يعلم هو أنه قد أصبح حلقة وصل هامة في شبكة للجاسوسية.

خلال أول أربعة أشهر من إقامتها في أوتاوا، استطاعت أن تصبح جاسوسة رئيسية، كان أهم عامل مساعد لها أنها اختارت أن تلعب دور امرأة إنكليزية في منتصف سنيها الثلاثين.

لكن «آيلين» التي كانت تبدو كثيرة الاهتمام بالأعمال الخيرية والتي كانت دوماً على استعداد لمساعدة أي محتاج، لم تكن فقط تدير شبكة جاسوسية بل عصابة إرهاب تتولى خطف وقتل الناس.

فقد أمرت بقتل مهندس الكتروني من أصل الماني يعمل في مصنع في كندا. اعتبروه صالحاً للعمل معها كمخبر لاطلاعه الوثيق على انتاج وتطور المصنع الذي يعمل فيه. إلا أنه هدها بإطلاع السلطات على نشاطها رغم تهديدها إياه بأن أقاربه الذين لا يزالون يسكنون المانيا الشرقية سوف «يعتني بأمهم» اذا هو رفض التعاون معها، فقد دبّرت عملية تخديره وقتله بواسطة جهازها الارهابي بحيث تظهر الوفاة كأنها نتيجة انتحار.

ومن أعمالها الأخرى أنها استطاعت أن تخطف مهاجر سلافي يعمل رساماً في مكتب لتصميم الطائرات وأن تنقله بنجاح الى موسكو. فهو أيضاً لم يرضخ لتهديدها وقال أنه سيبلغ السلطات عنها. وقد عني ما قاله، لكنه لم يفلح في الاتصال بالشرطة. فبينما كان يمشي في شارع قريب لمنزله، توقفت بجانبه سيارة وترجل منها رجال ضربوه ونقلوه الى منزل مهجور في الريف. وعندما توفرت أساليب السفر، حقن بالمخدر وأجري تهريبه على سفينة الى روسيا وهو في حالة غياب عن الوعي.

وحتى أغسطس ١٩٥٩ ، كانت «آيلين» قد دبرت عدداً من عمليات الخطف والقتل ضد «عناصر تشكل خطراً على الشبكة» مما اضطر موسكو الى أمرها بوقف نشاطها الارهابي لأن هذا سيعرضها عاجلاً أم آجلاً الى أن تصبح موضع الشبهات وبالتالي الى فضح نشاطاتها. ولكي تتأكد موسكو من أن «آيلين» سوف تنفذ الأوامر المرسلة اليها، أوكل الى عميل بمراقبة أعمالها وإرسال تقارير دورية عنها.

وبالرغم من جهلها بأن العملاء السوفييات يراقبونها، أطاعت (آيلين) أوامر موسكو، خاصة وأن «غاكزين» تدرب تلاميذها على الطاعة لا على العصيان. لكنها استمرت في استعمال التهديد بالفضح واستعمال القوة في بحثها عن المخبرين والمعلومات. لم تتدخل موسكو في هذا النشاط، لأن «آيلين» كانت ترسل تقارير ومعلومات بالشفيرة تفوق قيمتها أي تقارير أخرى يرسلها الجواسيس المقيمون الآخرون. ووافق رؤساؤها على إطلاق يدها بالعمل. حتى يوليو عام ١٩٥٩ ، كانت آيلين ما تزال تعمل بائعة في متجر للألبسة النسائية في قلب أوتاوا، لكنها وجدت أن التزامها بهذا العمل لا يترك لها وقتاً كافياً للإنصراف الى نشاط الجاسوسية المتزايد باستمرار، فترك عملها، ولكنها أدركت أنها بحاجة الى واجهة تخفي وراءها عملها الحقيقي، فقررت أن تفتح عملاً لها. وجدت متجراً ملائماً بمساعدة أحد العملاء إلا أنها خلافاً للجواسيس الروس الآخرين، لم تستعمل آيلين متجرها - الواجهة كمركز التقاء للمخبرين وضباط الاتصال والعملاء المساعدين، فقد كانت تفضل الاجتماع بهم في الأماكن العامة.

وفي عطلة عيد الميلاد حدث انقلاب غير منتظر في حياة الجاسوسة. فقد دخل متجرها شاب وسيم باحثاً عن هوية لوالدته وأعجب بآيلين المهيبة واستطاع أن يقنعه بالخروج معه. ولأول مرة في عملها كجاسوسة تخلت آيلين عن الانطباع الذي أعطته عن نفسها بأنها لا تخرج مع أحد.

ورغم أنها كانت أذكى الجواسيس التابعين للمخابرات الروسية وأكثرهم

حزماً، فقد بقيت حتى يناير من عام ١٩٦٠ لتكتشف أن حبسها الذي عرض عليها الزواج هو ضابط في الشرطة. فأبلغت موسكو بالأمر بأسرع وقت وتلقت أمراً بالاستمرار بصداقاتها للضباط ومحاولة معرفة المعلومات المتوفرة عند البوليس الكندي عن الجاسوسية الروسية. وذهب رؤساؤها الى أبعد من ذلك حيث اقترحوا عليها أن تقبل عرض الزواج اذا اقتضى الأمر.

استطاعت آيلين أن تحصل على معلومات مفيدة من حبسها. فمنه سمعت لأول مرة عن «ايغور غوزنكو» موظف الشيفرة في السفارة الروسية في شارع شارلوت في أوتاوا، الذي فضل الحرية - كما قال - وسلم نفسه للسلطات الكندية. وإن هذه القصة في الواقع تستحق التسجيل. فقد قرر غوزنكو في ٥ أكتوبر ١٩٤٥ أن يطلب اللجوء السياسي في كندا. وقد كانت فكرة الفرار من السفارة الروسية تراوده منذ زمن. وعلم أن عليه اثبات حسن نيته للكنديين للحصول على حق اللجوء السياسي. فقد أجرى احتياطات كثيرة وبعيدة المدى لقطع علاقاته نهائياً بالسوفيات. من أجل ذلك اختار مجموعة كاملة من الوثائق تثبت أن عشرات من الدبلوماسيين الروس في أوتاوا والمدن الكندية الأخرى يقومون بنشاط هو أبعد ما يكون عن العمل الدبلوماسي. وكان ايغور قد تلقى تدريباً قصيراً ومفيداً في المخابرات، فترك وثائق السفارة، البالغة الأهمية، في ملفاتها الطبيعية - في حال تعرضها للفتيش من قبل المسؤولين، بينما هو يقوم بالتحضير للهرب - وعلم الوثائق التي يحتاجها ليسهل عليه تمييزها في اللحظة الأخيرة قبل هربه.

وفي ساعات النهار الأولى من مساء الخامس من تشرين الأول/أكتوبر، قرر «غوزنكو» أن «ساعة الصفر» قد حانت فترك السفارة وتوجه حالاً الى مكاتب إحدى الصحف حاملاً في جيبه معلومات كفيلة بوضع اثني عشر دبلوماسياً وجاسوساً في السجن. لكن محرر الصحيفة لم يقتنع بأن الوثائق التي يحملها موظف الشيفرة حقيقية. فتخلص منه بطريقة لبقة مدعياً أنه بحاجة الى التفكير بالأمر وطالباً منه أن يعود اليه فيما بعد.

أدرك «غوزنكو» أن عليه أن يعمل بسرعة قبل أن يتعقبه الجواسيس الروس في أوتاوا ويعيدوه إلى السفارة. وفي حيرته هذه، ذهب لمقابلة عدد من الموظفين الحكوميين ولكنه حشما ذهب كان يلاقي استقبالا كالذي لاقاه في الصحيفة.

وفي النهاية ساعدت السفارة الروسية غوزنكو من حيث لا تدري. فقد تلقى ضابط الأمن في السفارة نبأ اختفاء موظف الشيفرة وقرر اتخاذ الخطوات اللازمة لإرجاع الهارب. وعندما كسر رجال مجهولون باب الشقة التي يسكنها غوزنكو وقلبوا حوائجه رأساً على عقب، قرر البوليس الكندي العمل ووضع موظف الشيفرة تحت الحماية. وعندما روى اللاجي قصته وأثبت صحة أقواله بتسليمه الوثائق لم يعد يعامل بالحواجب المرفوعة والبسمات المشككة. هذه المرة صدقه الناس. وطبعاً رفضت السلطات الكندية طلب السفارة الروسية بتسليمها غوزنكو لمحاكمته «بتهمة خطيرة» ولكونه لصاً، بالعكس فقد منحته اللجوء السياسي، واعترفت المنظمات الغربية المضادة للجانوسية أنها لم تكن تشك في أن السفارة الروسية في أوتاوا مركزاً لشبكة واسعة، وأنها كانت ستظل على جهلها إلى الأبد لولا «ايغور غوزنكو».

لما سمعت آيلين هذه القصة، قالت لحبيبتها أنها تجد صعوبة في أن تصدق المخابرات الكندية المضادة إلى الاعتماد على معلومات من روس فارين لتعقب الجواسيس الروس وانتقدت الشرطة الكندية لقلة يقظتها. قالت هذا لتعلم مدى معرفة متعقبي الجواسيس الكنديين بشبكة المخابرات السوفياتية وماهية الخطوات التي يتخذونها. وكتبت إلى موسكو تقول أن خطيبها «لا يعرف شيئاً عن هذا، أو أنه حذر إلى درجة أنه يرفض أن يقول لها».

استطاعت آيلين أن تواصل نشاطها التجسسي الفريد من نوعه دون عقبات. لكنها في آذار/مارس ١٩٦١، تلقت الأوامر من رؤسائها بمغادرة كندا، وزودتها «الدائرة الثالثة» برسائل «حقيقية» من انكلترا تقول أن عمها على

فراش الموت ويطلب مجيئها فوراً. كانت قصتها مقنعة الى درجة أن خطيبها لم يشك بشيء بل شجعها على السفر بأسرع وقت.

ومن المؤكد أن «تانيا ماركوڤنا راديونسكا» قد أخذت - ثانياً - لنفسها اسماً جديداً لتمارس تجسسها من خلاله في مكان جديد.

والواقع أن آيلين لم تكن الوحيدة، جاسوسة سوفياتية في كندا، ورئيسة لشبكة تجسسية فيها، بل كان هناك أيضاً من الجواسيس الروس، كثير يسرح ويمرح بفضل السواتر التي كانوا يتخذونها لممارسة جاسوسيتهم. ومن هؤلاء على سبيل المثال، الكولونيل زابوتين، الجاسوس الروسي المقيم وهو من خريجي «غاكزين». وقد عاش في كندا ولم يشته به أحد. وقد جند عدداً كبيراً من أعضاء الحزب الشيوعي الأوفياء لفرعه الواسع النطاق. وهو قد اقترب فقط من الرفاق الذين تسلم أسماءهم من موسكو والذين صنفوا في دائرة الاستخبارات السرية في موسكو بأنهم «أوفياء للغاية ويمكن الاعتماد عليهم».

وكذلك الدكتور «آلن فون ماي» الجاسوس الذري الذي كان مخبراً في شبكة جاسوسية الحزب الشيوعي الواسعة، وقد أُلقي القبض عليه فيما بعد وحكم عليه بالسجن لمدة طويلة.

وقد أصدرت اللجنة الملكية المكلفة «بالتحقيق في قضية تصريف المعلومات السرية الى عملاء قوة أجنبية» تقريرها النهائي، وهو مستند مؤلف من سبعمائة صفحة، يصف متشعبات الاستخبارات السرية السوفياتية في كندا على الطريقة التالية:

وصفت الحركة الشيوعية في كندا بأنها القاعدة التي يؤخذ منها عملاء الجاسوسية وقد نجح السوفييات نجاحاً كبيراً في تجنيد الكنديين للحصول على المعلومات السرية.

كان يتأثر الكنديون في الشبكة بمبدهم السياسي والانطباع النفساني

الذين تلقوهم في مجتمعهم الدراسي . وقد أدخل بعدئذ الكسب المالي تدريجياً . كانت المنظمة تهتم اهتماماً خاصاً بالحصول على معلومات حصص بالادوات التي ستستعمل للدفاع عن كندا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة . لم يكن أحد في كندا يعرف كيفية صنع القنبلة الذرية ، لذلك كانت المعلومات عن الرادار والأجهزة المضادة للغواصات والمتفجرات والمحركات . أن العضوين الرئيسيين في منظمة الجاسوسية هذه كانا : «سام كار» من مونتريال و«فريد روز» عضو في البرلمان عن مونتريال .

تمكن الدكتور «آلن فون ماي» من الحصول على نماذج من أورانيوم ٢٣٥ وأورانيوم ٢٣٣ التي تنتج عنهما الطاقة الذرية ، وسلمها الى الملازم الأول «انجلوف» من شبكة الجاسوسية السوفياتية في كندا ، وقد أرسلت هذه النماذج بالطائرة الى موسكو بواسطة الملازم الأول «موتينوف» والذي هو جاسوس سوفياتي آخر يعمل في كندا . وقضيته الدكتور «آلن فون ماي» معروفة وقد دخلت التاريخ من بابه الواسع لأنها تصور الخسارة التي سببها الجواسيس الشيوعيون «الهواة» وهم يسببونها الآن للعالم الحر .

المرجع

- ج. برنارد هاتون «مدرسة الجواسيس» ترجمة غسان درويش. المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر. بيروت ١٩٦٣. ص ١٤٨ - ١٥٨. و ٢٣٨ - ٢٣٩.

المخابرات السوفياتية تتغلغل في الحياد السويسري

بالرغم من طابع «الحياد» الذي تتميز به سويسرا إلا أنها لم تفلت من قبضة المخابرات السوفياتية التي وجدت فيها حقلاً خصباً لتغلغل شبكة تجسسية اعتبرت من أهم الشبكات خلال الحرب العالمية الثانية، سواء من حيث كمية المعلومات التي حصلت عليها أو قيمتها أو مدى تغلغل مصادرها في الأوساط الحكومية والعسكرية الألمانية. وإذا كان هناك كثير من شبكات الحلفاء التي مارست نشاطاً متزايداً ضد ألمانيا من داخل أراضيها أو من الدول المجاورة لها (الشبكات الانجليزية في البلاد الواطئة والدانمارك وسويسرا الشبكة الأميركية في سويسرا وبعض الدول التي خضعت للإحتلال الألماني) فإن الشبكة السوفياتية بسويسرا تأتي في المرتبة الأولى بالنسبة لها من حيث مدى أهمية انجازاتها بصفة عامة ومساهمتها خاصة في الانتصارات الحربية التي حققتها الدولة التي تنتمي إليها وهو نشاط هائل وكبير بالفعل.

فما هو سر هذه الشبكة؟ وما هي دوافع تكوينها؟ وكيف كانت انجازاتها؟. رغم عدم وجود علاقات دبلوماسية بين الاتحاد السوفياتي وسويسرا حيث قطعت العلاقات بينهما منذ عام ١٩٢٢ ولم تستأنف إلا في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وبالتالي عدم توافر هيئات أو أفراد تابعين لموسكو يتمتعون بالحصانة الدبلوماسية ويمكن أن يقوموا مباشرة بإنشاء وتشغيل شبكات للجاسوسية أو حتى القيام بدور مساعد لها (وقد اتضح بعد ذلك مدى أهمية تواجد هؤلاء الأفراد والمنظمات في سويسرا لتقديم المساعدات المالية والفنية والحيلولة دون انهيار الشبكة في وقت مبكر نسبياً). . رغم ذلك حرص

المسؤولون في المخابرات السوفياتية على أن تكون سويسرا في مقدمة مراكز نشاطهم في أوروبا نظراً للعوامل التالية:

أولاً: وجود حدود مشتركة بينها وبين ألمانيا والدول الأخرى التي سيطرت عليها (فرنسا - النمسا مثلاً) مما يساعد شبكاتها على سهولة استقبال المعلومات التي ترد من مصادرها في هذه الدول أو البحث عن مصادر جديدة فيها.

ثانياً: توافر مصادر معلومات غزيرة داخل سويسرا نفسها من جانب الألمان المعادين للنازية أو الموالين للشيوعية أو الجواسيس المأجورين أو غيرهم.

ثالثاً: الحياد الذي تمتعت به وعدم توافر احتمالات مؤكدة لهجوم ألمانيا عليها نظراً للظروف الدولية والداخلية التي كانت سائدة حينئذ.

رابعاً: عدم وضعها لقيود مشددة على نشاط شبكات الجاسوسية التابعة لدول الحلفاء بعكس الشبكات الألمانية التي قيدت نشاطها بالمقارنة بموقفها من شبكات الحلفاء.

خامساً: ما لمسه المسؤولون السوفيات بعد ذلك من تعمد إمداد سويسرا للشبكة السوفياتية بمعلومات حيوية عن ألمانيا لاعتقادها أن ذلك يخدم المصلحة العليا السويسرية حيث كانت الحكومة السويسرية تعشى من انتهاك ألمانيا لحيادها والاستيلاء على الأقاليم التي يقطنها المواطنون السويسريون الذين يتكلمون اللغة الألمانية. وأدركت - لذلك - أن تأخر انهيار الاتحاد السوفياتي وتحول مجرى الحرب لصالحه سيحول دون شروع ألمانيا في تنفيذ مخططاتها تجاهها.

يمتد تاريخ وجود الشبكة السوفياتية في سويسرا إلى ما قبل نشوب الحرب العالمية الثانية، ولم تأخذ شكلها الكبير الذي عرفت به إلا بعد قيام الحرب وبرز نوايا ألمانيا التوسعية واتجاهها لتنفيذ مخططاتها لغزو الاتحاد

السوفياتي . ورغم ارتباط النشاط الحقيقي للشبكة بالظروف التي مرت بها العلاقات الألمانية السوفياتية، إلا أنه ارتبط أيضاً بشكل أساسي بوجود ثلاثة أشخاص يعملون على رأس الشبكة حركوا أحداثها وصنعوا انجازاتها وتسببوا بصفة جوهرية في النجاح الذي وصلت اليه وهم : الكسندر رادو (المدير المقيم لها) ورودولف روسلر (أهم مصادر المعلومات للشبكة) وألكسندر فوت (الرجل الثاني لها). وهنا لابد من الإشارة الى هذه الشخصيات وانجازاتهم وتأثيرهم على أعمال الشبكة ومهامها.

فأول ما يفرض نفسه علينا عند الحديث عن «الكسندر رادو» هو أنه لم يكن جديراً بمنصب المدير المقيم للشبكة واحتلاله بالتالي للمركز الأول بين أعضائها، وذلك على ضوء القواعد الأساسية لفن المخابرات ودقة اختيار الأجهزة السوفياتية لعملائها. فرغم اتجاهاته الشيوعية ونشاطه المبكر في خدمتها حيث كان أحد قادة الثورة الشيوعية في المجر عام ١٩١٨ وهجر الى موسكو في أعقابها، وكلف بالقيام بمهام كبيرة لصالح الحزب والمخابرات في السويد والنمسا والمانيا وفرنسا، فإنه لم يرتق الى المستوى الذي يحتمه عليه مركزه بالشبكة وطبيعة العمل السري الذي يجب أن يغلف معظم أوجه نشاطه المتعلق بها إن لم يكن جميعها، ويدل على ذلك :

- اسرافه في انفاق أموال الشبكة بغير تدبير مما أسفر أولاً عن جذب اهتمام أجهزة مقاومة الجاسوسية الألمانية والسويسرية اليه وثانياً الى التعجيل بوقوع الشبكة في أزمة مالية كانت من بين الأسباب الرئيسية التي أدت الى توقف نشاطها في وقت تعذر فيه إمدادها بأية مساعدات من جانب موسكو أو الحزب الشيوعي السويسري .

- احتفاظه بقوائم مصروفات الشبكة التي تكشف بوضوح تفاصيل نشاطها المالي .

- سهولة تقبله للإثارة وعدم قدرته على السيطرة على شعوره في الأوقات الحرجة .

- تورطه في إقامة علاقة مع إحدى عميلات الشبكة والتي كانت من أهم الأسباب التي أدت الى كشف نشاط الشبكة وإدانة أعضائها.

- عقد اتصالات بينه وبين زعماء الحزب الشيوعي السويسري ومخالفة بعض إجراءات الأمن الأخرى. رغم كل ذلك، فإن هذا لا يعني انعدام الفوائد التي حصلت عليها الشبكة من رئاسته لها أو انتفاء وجود جميع شروط العمل الناجح فيه حيث اتخذ سائراً جيداً لتغطية نشاطه كأحد مديري وكالة متخصصة في الموضوعات والخرائط الجغرافية، مما أتاح للشبكة مصادر هامة للمعلومات. أما «رودولف روسلر» فإنه يعتبر من أهم العملاء الذين عملوا في ميدان المخابرات خلال الحرب العالمية الثانية بصفة خاصة، وجميع المراحل التاريخية السابقة بصفة عامة، سواء من حيث كمية المعلومات التي حصل عليها أو إرتفاع مستوى المصادر التي حصل منها على هذه المعلومات أو التقارب الزمني لإمداداته منها حتى وصلت أن تكون يومية في بعض الأحيان.

ولابد هنا من الإشارة الى ما ذكره كبار الكتاب والجواسيس عن روسلر في هذا المضمار. وقد أشار «لاديسلاس فارجو» مؤلف كتاب «حرب الدهاء» «أنه من النادر أن يكون لجاسوس بمفرده أثر حاسم على مجرى التاريخ. ولكن رودولف روسلر كان ذلك الرجل كما أوضح رونالد سيث «مؤلف كتب: فن الجاسوسية، تاريخ الجاسوسية اليابانية، الجاسوسية على المشرحة» بأنه ليس من المبالغة في شيء اذا قيل أن الاتحاد السوفياتي مدين بالنصر الذي أحرزه على ألمانيا لروسلر أكثر من أي شخص آخر بما في ذلك ستالين نفسه.

وعلى هذا الأساس أشار «دافيد دالن» في كتابه «الجاسوسية السوفياتية» الى «أن روسلر لم يؤد فقط أعمالاً هامة في الجاسوسية السوفياتية لعدة سنوات، ولكنه كان أيضاً من بين كبار الجواسيس». وكذلك كتب «الكسندر فوت» (الرجل الثاني في الشبكة السويسرية ومؤلف كتاب الموجز للجواسيس) ان أعمال روسلر هي التي مكنت الاتحاد السوفياتي من الانتصار على ألمانيا، حيث أرسل الى موسكو معلومات عن موقف القوات الألمانية في الجبهة

الشرقية يوماً بيوم .

لم تقتصر الدوافع التي وقفت وراء قيامه بالدور الملموس في كسب الاتحاد السوفياتي للحرب ضد المانيا على عامل واحد فقط، بل امتزجت عوامل عديدة تمثل في النهاية دوافعه التي تفسر موقفه هذا ومنها على سبيل المثال:

- يعتبر عداؤه للنازية العامل الأساسي الذي دفعه للعمل ضدها . وقد اتخذ ذلك صوراً عنيفة في وقت مبكر نسبياً حيث كان يهاجمها باستمرار في إحدى الصحف المحلية، وهاجر الى سويسرا بعد استيلاء قادتها على الحكم عام ١٩٣٣، وأنشأ داراً للطباعة في «لسوزيرن» تخصصت في إصدار المطبوعات المناهضة للنازية . . . وذلك بعكس كثير من الالمان الآخرين الذين تبلورت ميولهم العدائية تجاه النظام بعد تعرض الجيوش الالمانية للهزيمة، وظهور احتمالات عدم كسبها الحرب وبالتالي تعرض مستقبل الأمة الالمانية برمتها للخطر.

- لا يستطيع أحد أن ينفي أن رغبة روسلر الشديدة في الحصول على المال هي الدافع الثاني والهام الذي حرك أعماله . وتدلنا المبالغ الشهرية الكبيرة التي حصل عليها من الاتحاد السوفياتي (١٧٠٠ دولار) على حقيقة هذا الرأي .

إلا أن ما يجب الاعتراف به أن أعمالاً كتلك التي قام به روسلر كانت تفرض بمبالغ طائلة كمستلزمات وضرورات لا بد منها .

- يحرص بعض الكتاب الغربيين باستمرار على تأكيد أن نشاط روسلر لصالح الشبكة كان بناء على أوامر وتحت إشراف السلطات السويسرية، إلا أن انضمامه لعضوية جمعية كاثوليكية يسارية وحصوله على مبالغ طائلة من النقود، فضلاً عن قبض السلطات السويسرية عليه مرتين بتهمة الجاسوسية، يدل على أن هذا الرأي لا ينطبق على الواقع بشكل كامل، بل يوضح أن هذا

الإشراف كان ضمن الإطار العام الذي غلف موقف المسؤولين السويسريين تجاه أجهزة المخابرات التابعة للحلفاء، ويتمشى رأي «الكسندر فوت» مع هذا الاتجاه الأخير حيث لم يؤيد الرأي السابق بل أوضح أن روسلر ظل مخلصاً للمسؤولين السويسريين وللروس. وأنه نظراً لحسن حظه لم تتعارض مصالح كلتا الدولتين.

والجدير بالذكر أن المعلومات التي حصل عليها روسلر فاقت جميع ما حصل عليه الأعضاء الآخرون، مما أعطى له أهمية خاصة بينهم وجعل المشرفين على الشبكة في موسكو يحرصون باستمرار على كسب وده بمختلف الوسائل.

كذلك الحال بالنسبة لشخصية «الكسندر فوت» وأعماله التي حظيت بعناية خاصة من جانب المؤلفين الغربيين الذين تناولوا أعمال الشبكة السوفياتية في سويسرا سواء من حيث تخصيص حيز كبير نسبياً لأعماله في عدد كبير من كتب الجاسوسية أو وصفهم له بأكمل الصفات (كان استاذاً في الجاسوسية ويتمتع بالصفات اللازمة للجاسوس الناجح وبقدرة فائقة على العمل المتواصل - يعتبر جاسوساً ممتازاً من الطبقة الأولى، يحسن التصرف والتفكير ولديه مقدرة كبيرة على استخلاص النتائج ومراعاة إجراءات الأمن...).

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا الشأن هو هل يرجع السبب الأساسي في ذلك إلى تمتعه بالجنسية البريطانية وعدم تورطه في عمل مضاد لبلاده أو لأي من حلفائها؟ أم أن تلك الصفات التي أسبغوها عليه تجد لها أساساً من الواقع والحقيقة؟.

لا شك أن التبع السواعي لما كتب عن أعمال وشخصية «فوت» وتفاصيل التجائه إلى السلطات البريطانية بعد انتهاء الحرب، يوضح أن الاتجاه الذي سار فيه الكتاب الغربيون يجد تفسيراً له في كلا الأمرين معاً، أي أنه كان بالفعل من الجواسيس السوفيات الذين يعتمد عليهم. وإن عدم

تورطه في أي عمل ضد أمن بلاده كان له أيضاً أثره الواضح في أن تتسم الصورة التي أعطيت له بهذا الكمال وألا يقلل من قيمة بعض الأعمال التي قام بها كما حدث بالنسبة لأشخاص آخرين (المان - فرنسيين - أمريكيين).

وقد كان الساتر الذي اتخذته فوت لتغطية حقيقة نشاطه هو شخصية رجل أعمال انجليزي متيسر الحال مقيم بسويسرا لا يجيد سوى الراحة والاستجمام وقد انحصر العمل الرئيسي الذي قام به في تحويل الرسائل العادية التي ترسلها الشبكة الى موسكو الى أخرى مشفرة ثم إرسال معظمها عن طريق جهاز اللاسلكي الذي يخفيه في مسكنه، وفي تدريب عملاء الشبكة الجدد، والحصول على معلومات من بعض المصادر. وقد نجح «فوت» الى حد كبير في مراعاة القواعد الأساسية للشخصية التي تقمصها الى الدرجة التي أدهشت كل من اتصل بهم أو تعامل معهم من سويسريين أو أجانب بعد الإعلان عن حقيقة نشاطه بواسطة سلطات الأمن السويسرية. كما نجح في أن يكون عامل اللاسلكي الأول بالنسبة للشبكة رغم وجود جهازين آخرين للإرسال (أرسل نحو ستة آلاف رسالة الى موسكو). وقبل أن نتعرض لإنجازات الشبكة وتأثيرها على تغيير مجرى الحرب لصالح الاتحاد السوفياتي، هناك جانب هام يجدر التعرض اليه بالمناقشة والتحليل وهو موقف السلطات السويسرية من نشاط الشبكة. ويثار حول طبيعة هذا الموقف في الواقع كثير من التساؤلات كما تتسم بعض جوانبه بالتناقض. فيلاحظ أن بعض المصادر الغربية ترجح العامل الأساسي في نجاح الشبكة الى الخدمات التي قدمتها السلطات السويسرية لها (إمدادها بمعلومات كثيرة عن طريق روسلر - غض النظر عن نشاطها داخل أراضيها لفترة طويلة نسبياً) ويتفق في هذا الرأي كل من دافيد دالن ورونالد سيث. الى أن هذا الاتجاه اذا كان واقعياً في بعض جوانبه إلا أنه يبالغ في تصوير المساعدات السويسرية للشبكة السوفياتية وفي تقليل الامكانيات الحقيقية لأجهزة المخابرات السوفياتية التي أثبتت كفاءتها وقدرتها على العمل في دول وظروف عجزت أكفاً الأجهزة الأخرى عن العمل فيها (شبكة سورج مثلاً). كذلك نشأت التناقضات المشار إليها من

موقف كل من السلطات العسكرية بقيادة الجنرال جيسان (القائد الأعلى للجيش السويسري والذي كان له دور بارز في الشؤون الداخلية والخارجية لبلاده طوال فترة الحرب) وسلطات الأمن الداخلية تجاه نشاط الشبكة. فبينما كان جيسان وزملاؤه يسمحون لها بحرية العمل ويمدونها في نفس الوقت بمعلومات وافرة عن القوات الألمانية بطريق غير مباشرة وللأسباب السابق شرحها، سعت الأخرى في إطار ممارسة نشاطها العادي الى محاولة الكشف عن حقيقة نشاط الشبكة السوفياتية والقبض على أعضائها، ويمكن إلقاء بعض الضوء على أسباب هذا التناقض بالنظر الى :

- تطرق عمل الشبكة الى الشؤون الداخلية والخارجية الخاصة بسويسرا وعدم اقتصار نشاطها على ما يتعلق بألمانيا فقط مما دفع أجهزة الأمن الى التحرك للقبض على أعضائها.

- إلحاح المسؤولين بسفارة ألمانيا ببرن على هذه الأجهزة للقيام بذلك وتقديمهم لكثير من الأدلة التي تثبت إدانة أعضاء الشبكة (كتاب الشيفرة الذي يستخدمونه مثلاً).

- التنافس القائم بين أجهزة مقاومة الجاسوسية التابعة لكل من المخابرات الحربية السويسرية وأجهزة الأمن الأخرى والذي دفع الأخيرة الى المبادرة باكتشاف نشاط الشبكة دون التنسيق مع المخابرات الحربية.

بعد كل ذلك يمكننا التطرق الى الانجازات التي حققتها هذه الشبكة على مختلف الصعد والمجالات. واذا كانت الشبكة السوفياتية باليابان قد نجحت في الحيلولة دون هزيمة السوفيات أمام ألمانيا، والمساهمة في تحقيق الانتصار النهائي في الحرب، فإن انجازات الشبكة السوفياتية بسويسرا قد جعلت من هذا الانتصار حقيقة واقعة، واذا تصورنا أن القادة العسكريين لدولة ما على دراية كاملة بمعظم الخطط التكتيكية والاستراتيجية لقوات الدولة المتحاربة ضدهم، فإننا يمكن أن ندرك قيمة وشمول المعلومات التي حصلت عليها الشبكة السويسرية ومدى استفادة القوات السوفياتية بها، وسنقتصر

للتدليل على ذلك بالإشارة الى أهم الانجازات التي حققتها:

أولاً: ابلاغ موسكو بالتاريخ المحدد لغزو المانيا للأراضي السوفياتية (٢٢ حزيران/يونيو ١٩٤١).

ثانياً: معرفة الكثير من الخطط الاستراتيجية والتكتيكية للقيادة الالمانية العليا.

ثالثاً: الحصول على معلومات تفصيلية عن قوة وتشكيل وتحركات القوات الالمانية بأسلحتها الثلاثة الرئيسية.

رابعاً: الإسراع بتلبية الاحتياجات العاجلة التي ترسلها المخابرات السوفياتية عن بعض الشؤون المحددة الى جانب ذلك، لم يقل نشاط أحد أكبر الجواسيس الروس في سويسرا عن نشاط تلك الشبكة السوفياتية هناك وهذا الجاسوس هو «ليف موزيوفيتش باكاريوف».

وكان باكاريوف هذا قد تدرب في معهد «براخوفكا» ويدير شبكة جاسوسية ناجحة في سويسرا وبالتحديد في جنيف وبال وفرن مدعياً أنه رجل أعمال نمساوي. وكان مجال عمله في «المخابرات الدبلوماسية والحكومية». وقد زود موسكو بمعلومات سرية ذات قيمة كبيرة لمندوبي الكرملين في المؤتمرات الدولية. وقد ورد ذكره في مجلة «البريد الدبلوماسي» الروسية التي امتدحت بشكل مباشر الجاسوس المقيم في سويسرا اذ قالت: «وردت معلومات من جنيف مكنت المندوب السوفياتي في الأمم المتحدة من أن يفضح خطط اعتداء سرية يعدها الأميركيون».

وهكذا يتضح أن «الحياد» لا مكان له في قاموس الجاسوسية حتى ولو كان في عاصمة الحياد ذاتها في سويسرا. وعندما نجد في هذا العصر بأن دول عدم الانحياز قد أثبتت انحيازها، فإننا ندرك بكل ثقة بأن المخابرات والجاسوسية وخصوصاً الجاسوسية السوفياتية تتواجد في كل مكان وتتجسس حتى على «الهواء» وليس من بقعة في الأرض محرمة على هكذا مخابرات.

وطالما تتجسس على أعداء الإنسانية ولمصلحة الانسان فنحن معها.

المراجع

- ١ - د. حمدي مصطفى «حرب الجاسوسية» دار الوثبة. دمشق. دون تاريخ. ص ٥١ - ٥٨.
- ٢ - ج. برنارد هاتون. «مدرسة الجواسيس» ترجمة غسان درويش. المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر. بيروت ١٩٦٣. ص ٢٠٥ - ٢٠٦.
- ٣ - «كبار جواسيس الحرب العالمية الثانية» بإشراف ألبير دي مازيير بالتعاون مع جان مارسيلياك ولويس غاروس. جنيف ١٩٧٨ (باللغة الفرنسية).

المخابرات السوفياتية تتغلغل في استراليا وبلجيكا

لم تقتصر الجاسوسية السوفياتية على «تقمص الشخصية» وحدها، بل لجأت الى ما هو أهم من ذلك بكثير، حيث وصلت الى عملية «تقمص» المدن والمقاطعات والدول بكاملها، عبر مؤسسات اختصاصية في هذا المضمار. وتأتي مدارس «غاكزينا» و«براخوفكا» و«ستيابنايا» على رأس هذه المؤسسات. إلا أن المؤسسة الاختصاصية المعروفة بغاكزينا هي التي حازت على قصب السبق وفاقت في أهميتها كل المؤسسات والمدارس التي أخذت على عاتقها مسؤولية تخريج جواسيس المستقبل.

تقع مدرسة غاكزينا على بعد بضعة مئات من الأميال جنوبي شرقي كوبيتشيف وتبلغ مساحة أرضها (٤٢٥) ميلاً مربعاً. ولا يحق لأحد أن يقترب من غاكزينا ما لم يكن لديه رخصة من قبل الاستخبارات السرية، إذ أن المنطقة بكاملها تحرسها وحدات الاستخبارات السرية التي تعزل المنطقة بكاملها لمسافة ٣٠ ميلاً. كما أن هذه المدرسة لا تظهر على أية خريطة لدرجة أنها غير موجودة بالنسبة للشعب الروسي وغيره من شعوب العالم.

ينقل جواسيس هذه المدرسة بواسطة طائرات وزارة الداخلية الخاصة، اليها، ليتلقوا تدريباً اختصاصياً لمدة عشر سنوات، وذلك بهدف أساسي يتمثل بالخدمة في الخارج، عبر معايشة جو أجنبي غريب عنهم طوال هذه المدة، لكي يسهل عليهم العمل والحياة في البلدان التي تتكلم اللغة الانكليزية، بعد أن يكون دماغهم قد تعود تعوداً تاماً على الشخصية الجديدة التي

تقمصوها خلال تدريب العشر سنوات. من هذا القبيل، كانت الجاسوسية السوفياتية في استراليا، والتي تلاعبت بأعصابها كما يتلاعب العازف بأوتار عوده. وكذلك الحال في بلجيكا عبر شبكة «الأوركسترا الحمراء».

فما هو سر التجسس السوفياتي في استراليا وبلجيكا؟ وماذا كانت أهميته؟.

ففي شهر إبريل من عام ١٩٥٤، هرب موظف الشيفرة في السفارة السوفياتية في سيدني بأستراليا «فلاديمير بتروف» مع زوجته «يفدوكيا» بعد أن حررهم رجال الأمن الاستراليين من قبضة المرافقين الروس. وقد فضح بتروف وزوجته شبكة التجسس الروسية مما أدى الى توقف نشاط مخابراتها. وقد استمر عدد من الجواسيس المستقلين غير المرتبطين بالسفارة الروسية في الاتصال اللاسلكي بموسكو وتزويدها بالأفلام والرسائل المكتوبة بالشيفرة، لكن البون كان واسعاً ولم تعد المعلومات الواردة من استراليا مفصلة ودورية كما كانت من قبل.

صممت موسكو على ملء الفراغ الذي أحدثه «فلاديمير بتروف» وزوجته. فاتخذت إجراءات سريعة لإنشاء شبكة جديدة وقوية. كانت بحاجة الى سرعة فائقة لأن توسع منطقة ويميدا «السريع كمرکز للصواريخ الموجهة وللأبحاث النووية»، اقتضى إرسال جواسيس من الدرجة الأولى في الحال.

أرسل جواسيس مدربون في «معهد غاكزينا» الى استراليا ولكن هؤلاء وجدوا أنه من الصعب تنظيم شبكة جاسوسية على أسس متينة، لأن الجاسوسية المضادة في استراليا أصبحت حذرة وتشك في أي وجه جديد يأتي الى المنطقة. وقد فهمت موسكو هذه الصعوبات، فأمرت جواسيسها بتجميد نشاطهم حتى تهدأ الأمور. ويظهر من تقارير المخابرات الروسية أن بعضاً من الجواسيس الجدد في استراليا اضطروا الى البقاء وبدون نشاط مدة تتراوح بين ثلاثة وتسعة أشهر قبل أن يجرؤوا على البدء بالعمل من جديد.

وبالرغم من أن هؤلاء الجواسيس الذين اضطروا الى التخلي عن أي نشاط تجسسي كانوا مزودين بالمال الكافي، فقد بحثوا عن وظائف للتغطية، مدركين أن شخصاً يملك مالاً ومعظم أوقاته فارغة لا بد وأن يلفت الأنظار اليه. وقد تكلم هؤلاء بالتفصيل عن الظروف الاستثنائية التي تؤخر النشاط العام في تقاريرهم الى موسكو.

كان من بين الجواسيس الجدد في استراليا فتاة تدعى «ريتا اليوت» استطاعت بعد ثلاثة أشهر أن توجد تغطية كاملة لعملها.

اختارت القيادة العامة للمخابرات في موسكو لها هوية «ريتا اليوت» لأنها بعد أن بحثت ودققت في جميع الاحتمالات بالتفصيل قررت أن هذه الهوية «كاملة». الاسم الحقيقي لريتا اليوت هو «اسفير غريغوريفنا يورين» المولودة في موسكو عام ١٩٢٣. وكان والدها غريغوري ايفانوفتش يورين فناناً انضم عند بلوغه الثلاثين الى «سيرك الدولة» في موسكو. وكانت لاعبة «تراپيز» شهيرة. كانت «اسفير» عضواً نشيطاً في الحزب الشيوعي. وسرعان ما لاحظ المسؤولون عنها أنها صالحة للعمل في السلك الخارجي، فأرسلت عام ١٩٤٣ للتدريب الخاص، ودخلت معهد غاكزينا عام ١٩٤٥ حيث سميت «ريتا اليوت» وسجلت تحت رقم ٩ - ٤٥٠١١٠ / ٢١٥ - ج.

شجعها مدرسوها هناك على تعلم شتى فنون الرقص والألعاب البهلوانية لتصبح هذه المهنة تغطية كاملة لعملها في المستقبل.

وفي غاكزينا تعلمت «ريتا» فن السير على حبل مشدود قليل الانحناء على علو مرتفع. ورغم أن «ريتا» قضت وقتاً طويلاً في تطوير فنها البهلواني، فقد حازت أيضاً على العلاقات في الحقول الأخرى. وكانت التقارير الدورية المرسلة الى القيادة العامة للمخابرات في موسكو تقول عنها: ... لهذه الطالبة مؤهلات عدة، لا فقط في حقل اللغات ولكن في شتى فروع المعرفة. انها تملك جميع طاقات الجاسوسية. ولا شك أنها ستصبح موضع تقديرنا في عملها في المستقبل...

ان تطورها في اللغات والتأقلم لا مثيل له. فبعد أربعة عشر شهراً تتكلم وتتصرف وكأنها قد ولدت في البلد الذي سوف ترسل اليه. ويجمع أساتذتها على أن لهجتها كاملة...

وعندما حان موعد الامتحانات النهائية فازت ريتا فيها بتفوق. وبعد بضعة أيام استلم «قسم النقل» أمر ترحيلها الى استراليا.

تسللت «ريتا اليوت» الى استراليا في أواخر اكتوبر عام ١٩٥٥ وتوجهت الى «اديليد» حيث مكثت مدة ثمانية أيام لتعتاد على محيطها الجديد. ثم انتقلت الى «ملبورن» حيث عليها أن تمضي بضعة أسابيع. وكانت قصة التغطية أنها آتية للبحث عن وظيفة، وأن فرص الحصول على وظيفة أحسن منها في «ملبورن» مما هي في «اديليد». وكانت تحمل عنوان بيت محترم يسكنه الفنانون.

بعد أن تعرفت ريتا على «ملبورن» لمدة أسبوع، وجدت مكتباً للتوظيف. وكتبت الى رؤسائها عن هذه الفترة قائلة: «سجلت طلب الوظيفة. وقد أخذ لي موعد لأعرض «نمرتي» وأعجب بي فوقعتنا عرضاً وقالوا أنهم واثقون من أنني سأبدأ العمل قريباً».

كتبت ريتا في تقريرها التالي الى موسكو تقول أنها بدأت العمل في ملبورن وقد قوبلت بالاستحسان وقادها عملها الفني الى «سيدني» و«كاميرا» والمدن الاسترالية الرئيسية الأخرى، فاستقرت وعادت نشاطها التجسسي الذي بدأت في ملبورن. وبما أنها كانت من أمهر جاسوسات المخابرات الروسية، فقد استطاعت أن تنشئ شبكة جاسوسية في مدة قصيرة. وأخذت ترسل التقارير بواسطة جهاز لاسلكي صغير الحجم. وبعثت بعدة أفلام لوثائق سرية وبعدها لا يحصى من التقارير المكتوبة بالشفيرة.

كانت ريتا تطبق تعاليم معهد «غاكزين» في عملها التجسسي الواسع في مجال المعلومات النووية والسرية. وكان مساعدوها يعرفونها على موظفي

الحكومة وكبار الشخصيات الذين يملكون معلومات أكيدة عما يجري في منطقة «ويميدا» ومراكز الأبحاث التابعة لها باعتبارها منطقة الصواريخ الموجهة ومراكز الأبحاث النووية.

وكانت طريقته في استخراج المعلومات من أشخاص لا يتفوهون بها في الأحوال العادية رهية مما يجعلها جذيرة بأن نذكر نقلاً عن تقرير للمخابرات الروسية حول الموضوع... كانت تستميل الرجال إليها بجمالها الخارق. وبعد أن يتناولون المشروب معها، كانوا يقبلون دعوتها لهم للذهاب إلى شقتها. وهناك كانت تقدم لهم مشروباً ممزوجاً بمخدر خاص يفقد الإنسان سيطرته على نفسه. ثم كانت تنوم الرجل تنوياً مغناطيسياً وتوحي إليه بأن يقدم تقريراً عن عمله لرئيسه. ثم تسأله أسئلة دقيقة وتسجل جميع ما يقوله.

إن الأهمية القصوى لهذه الطريقة تكمن في أن ريتا تأمر الرجل النائم - قبل إعادته إلى وعيه - أن ينسى كل ما قال ويتذكر فقط أنهما كانا يشربان معاً.

وبالرغم من حذر ريتا وبعد نظرها، فإنها لم تفلت من الجاسوسية المضادة في استراليا. فقد لوحظ أنها تعاشر عدداً كبيراً من موظفي الحكومة، ومن الشخصيات الكبيرة المرتبطة بشكل أو بآخر بالأبحاث النووية السرية. وقد أظهر التحقيق أن هؤلاء الرجال أكدوا أن علاقتهم بها كانت اجتماعية وخاصة. وأكد كل واحد تقرير الآخر بقوله أن الفتاة لم تذكر له شيئاً عن السياسة أو عن الأبحاث العلمية، بل كانت تريد أن تقضي وقتاً طيباً.

وكان في استراليا جاسوس تابع للمخابرات السوفياتية مهمته مراقبة نشاط الجواسيس المقيمين والحفاظ على سلامتهم فبلغه أن «ريتا اليوت» قد وضعت تحت المراقبة. فأبلغها وأبلغ موسكو بالأمر بأسرع وقت وعوضاً عن أن تستدعي موسكو الجاسوسة وثبت بذلك شكوك السلطات الاسترالية، أمرتها بوقف نشاطها التجسسي «في الحال»، وبإبلاغ مساعديها بتجميد نشاطهم حتى إشعار آخر، وينقل آلات الإرسال والأدوات الفوتوغرافية إلى مكان أمين. وطلبت موسكو من ريتا أن تستمر في حياتها كفنانة لكي يظهر

للعيان أن ما من شيء قد تغير. وبالرغم من رجال التحري التابعين للجاسوسية المضادة الاسترالية المتكبرين والذين كانوا يقومون بمراقبة ريتا، فقد تمكنت خريجة معهد «غاكزينا» من الاتصال بالمخبرين وضباط الاتصال والمساعدين الآخرين الذين يعملون معها وبالتخلص من جميع ما يثير الشبهات حولها.

واكتشفت ريتا آلات لاقطة مخيفة في منزلها. ولكنها تصرفت وكأنها تجهل المراقبة عليها. ولم تستطع الجاسوسية المضادة من أن تثبت شيئاً ضدها لكنها قررت الاستمرار في مراقبتها.

ولم تجد موسكو مبرراً لإبقاء ريتا هناك تحت التهديد الدائم باكتشافها فقررت أن توكل الى «ريتا اليوت» - الموضوعت تحت المراقبة بسبب الشكوك المؤقتة عليها - مسؤوليات أخرى.

ووجدت «الشعبة الثالثة» في القيادة العامة للمخابرات في موسكو الحل للقضية. ففي كانون الثاني/يناير عام ١٩٦١ أرسلت الى «ريتا اليوت» من الهند وباكستان وبلاد أخرى عروضاً «حقيقية» للعمل في كباريهات وملاهي من الدرجة الأولى. فقبلت ريتا وغادرت استراليا في فبراير ١٩٦١، حيث ظهرت في الهند لكنها لم تقم بأي نشاط تجسسي، ثم انتقلت الى الباكستان حيث اختفت أخبارها نهائياً. إلا أن المرحّج فلإنها أعطيت اسماً جديداً لتمارس عملها القديم في مكان جديد، ذلك لأن أمثالها قلائل، وباستطاعتها أن تخدم المخابرات السوفياتية في أي بلد انتدبت اليه.

وفي عام ١٩٥٤ أثبتت التحريات التي أجرتها الحكومة الاسترالية أن ثلاثاً من مراسلي تاس في استراليا هم جواسيس. وورد في تقرير حكومي حول هذا الموضوع ما يلي: «ان جميع مراسلي تاس في استراليا أعضاء عاملون في ملاكات الشرطة السرية الروسية. وإن تزويد الشرطة السرية بالمعلومات هي مهمتهم الأولى، ونجدهم من أجل ذلك يمتزجون بحرية بالصحفيين دون إثارة الشكوك».

هذا ما جرى في استراليا. أما في بلجيكا فكانت الجاسوسية الروسية على جانب كبير من الأهمية أيضاً. ويعتبر فرع شبكة «الأوركسترا الحمراء» في بلجيكا من أهم وأكبر فروع الشبكة في الدول الأوروبية. وقد عاصر في أولى مراحل انشائه تنفيذ الخطة السوفياتية الخاصة بالحصول على المعلومات المختلفة عن بريطانيا حيث اتخذت بلجيكا مقراً رئيسياً للنشاط الموجه إليها نظراً لموقعها الجغرافي القريب منها. كما تميز هذا الفرع أيضاً باستمرار نشاط أعضائه لفترة طويلة نسبياً بالمقارنة مع الفروع الأخرى وتجدد نشاطه رغم القبض على كثير من أعضائه. ومما ساعد على ذلك عدم تشدد القوانين البلجيكية الخاصة بالجاسوسية (قبل احتلالها من قبل المانيا) حيث لم تكن تنص على أي عقاب بحق الجاسوس إلا اذا كانت أعماله موجهة ضد بلجيكا نفسها. هذا فضلاً عن تمتع كثير من الشركات (ومنهما تلك التي أنشأتها الشبكة) بالتسهيلات الخاصة بالاتصال البرقي أو التليفوني أو الشخصي بالدول الأوروبية المختلفة.

انحصر الساتر الأساسي الذي اتخذته أعضاء الشبكة في بلجيكا في النشاط التجاري، حيث قام «ليوبولد تريبار» بالتعاون مع زملائه بإنشاء شركة سيمكسكو للتصدير والاستيراد (وهي تختلف عن شركة سيمكس - في فرنسا) كما تم أيضاً استغلال إحدى الشركات التي تتولى صنع الملابس الواقية من المطر في خدمة أهداف الشبكة وتسخير كافة مرافقها لتحقيق هذه الأهداف فضلاً عن إقامة فروع لها في عدد كبير من الدول الأوروبية (المانيا - السويد - النرويج - الدنمارك) ونظراً لرغبة الشبكة في الحيلولة دون إثارة الشبهات حول حقيقة نشاط هذه الشركة لم تقم بتعيين مديرها العام من أعضائها بل تم تعيين شخص آخر هو «جولس جاسيار» والذي كان يتمتع بماضٍ نظيف ومركز اجتماعي مرموق، كما لم تكن له أية ميول شيوعية (كان أخوه رئيساً لحكومة بلجيكا - عمل قنصلاً لبلاده في الهند الصينية والسويد والنرويج).

هذا وقد لعب بعض الشخصيات الهامة دوراً رئيسياً في تسيير هذا

النشاط وتحقيق الأهداف المحددة وهم على الوجه التالي :

فيكتور سوكولوف :

هو طيار سوفياتي سابق . اشترك في الحرب الأهلية الإسبانية وكان يعتبر الساعد الأيمن للمدير المقيم . وهو الذي قام بإنشاء شركة سيمكسكو بالتعاون مع باقي أعضاء الشبكة وتولى تجنيد بعض العملاء وتنفيذ بعض العمليات في فرنسا وألمانيا ، وقد هبط في الأخيرة «بالبراشوت» وقام بإعادة تنظيم فرع شبكة «الأوركسترا الحمراء» هناك وتدريب أعضائها على الإرسال اللاسلكي . وكان سوكولوف يعتبر عامل اللاسلكي الأول بالنسبة لكافة فروع الشبكة حيث تولى إرسال كثير من الرسائل عن طريق جهازه الذي كان يخفيه في مقر إقامته . ولا شك أن تعدد الأسماء الكودية التي كان يستخدمها بصورة واضحة (فنان سبيرا - إدوارد كنت - كارلوس الامو - جورفيتش ...) يشير الى أهمية الدور الذي قام به في الشبكة .

ليون جروشفوجيل :

هو أحد رجال الأعمال البلجيكيين . يهودي الديانة وكان معادياً للنازية وقد اعتنق المبادئ الشيوعية وكان من أهم مساعدي تريبار في بلجيكا وقد قام بمعاونته في تسخير شركة الملابس التي يملكها في خدمة كافة أهداف الشبكة والإشراف على كافة أعمال التجسس التي تتم في نطاق الشركة والقيام بتنفيذ بعض العمليات المتعلقة بها في فرنسا . هذا فضلاً عن إعداد وتنظيم الأسماء الكودية والوظائف الوهمية الخاصة بأعضاء الشبكة

كونستانتين يفراموف :

تولى رئاسة الشبكة في بلجيكا بعد القبض على معظم أعضائها (باستثناء تريبار وسوكولوف) وقد تمكن من تسيير شؤونها لمدة ستة أشهر

متخذاً من الدراسة في جامعة بلجيكا ستاراً له .

وهكذا قامت الشبكة عن طريق الشركتين المذكورتين وباقي عملائها بممارسة نشاطها لتحقيق أهدافها المحددة وذلك على النحو التالي :

أولاً: اشتراك شركة سيمكسكو في تنفيذ بعض المشروعات الخاصة بالقوات الألمانية في بلجيكا مما مكنها من الحصول على المعلومات الفنية الخاصة بها والمعلومات الأخرى المتعلقة بهذه المشروعات .

ثانياً: تعاون الشركة مع بعض المؤسسات الألمانية في بلجيكا وبصفة خاصة منظمة تودت التي تعمل في مجال المنشآت الحربية ، وذلك بهدف التسلل الى داخلها ومعرفة تفاصيل المشروعات التي تقوم بتنفيذها .

ثالثاً: قيام المسؤولين عن هذه الشركة بدعوة القادة الألمان الموجودين في بروكسل ، من بينهم القائد العام الى حفلات الاستقبال والعشاء التي تقيمها بصفة دائمة لهذا الغرض وتوفير سبل الراحة وكافة التسهيلات اللازمة لهم (خمور - نساء جميلات ..) الأمر الذي حقق للشبكة فضلاً عن المعلومات التي حصلت عليها من الثروة المعتادة في مثل هذه الظروف ، تحويل أنظار أجهزة مقاومة التجسس عن الشركة لفترة طويلة نسبياً .

رابعاً: استقبال شركة الملابس وسيمكسكو للمعلومات المختلفة الواردة من فروعها في الدول الأوروبية وإعدادها للإرسال الى موسكو . فضلاً عن توجيه عملائها في هذه الفروع والتنسيق بين نشاطهم .

خامساً: تجنيد عشرة عملاء ممن يعملون في الأجهزة الألمانية والبلجيكية الحيوية والحصول عن طريقهم على معلومات هامة في المجالات التي يعملون فيها .

سادساً: تجنيد احدى البولنديات اليهود في الشبكة وهي (صوفي بوزانسكا) وتكليفها بعد التأكد من اتجاهاتها المؤيدة للشيوعية والمعادية للنازية بتشفير الرسائل التي تبعث الى موسكو . وقد أثبتت هذه العملية أنها

على مستوى المسؤولية وتفوق في إخلاصها لمبادئها وللشبكة المدير المقيم نفسه وكثيراً من الأعضاء الآخرين، حيث فضلت الانتحار على الإدلاء بأسرار الشيفرة السوفياتية الى المخابرات الألمانية عندما أُلقي القبض عليها.

بعد كل ذلك، يثبت السوفييات عبر جاسوسيتهم المتطورة بأنهم كالهواء يتواجدون في كل مكان يسكنه بنو البشر. وأينما كان هناك انسان، يعني أن هناك حياة وانتاجاً واختراعات، وطبيعي أن تكون الجاسوسية السوفياتية قد وجدت لها موطئ قدم في أهم مفصل حيوي فيها. ومن هنا قال «يوركي راستفوروف» الموظف السابق في السفارة الروسية في طوكيو أن ما من مواطن سوفياتي يغادر حدود روسيا بصفته الشخصية. فليس ثمة سواح سوفيات. . . وحيثما كان ثمة مواطنون روس في السفارات والقنصليات والبعثات التجارية والثقافية وحتى في الفرق الرياضية، فإنهم يكونون عملاء سريين.

المراجع

- ١ - د. حمدي مصطفى «حرب الجاسوسية» دار الوثبة. دمشق. دون تاريخ. ص ٤٢ - ٤٥.
- ٢ - ج. برنارد هاتون «مدرسة الجواسيس» ترجمة غسان درويش. بيروت ١٩٦٣. ص ١٥٩ - ١٦٦ و ٢٢١.

«النسر» وتغلغل المخابرات السوفياتية في نخاع السويد (١)

اهتز العالم عندما سمع لأول مرة بانتصار ثورة أكتوبر في روسيا عام ١٩١٧ بقيادة فلاديمير ايليتش لينين، باعتبارها أول ثورة اشتراكية في العالم. وكم ازداد هذا الخوف فيما بعد عندما بدأ نجم هذه الثورة يلمع ويبرق، متجاوزاً حدود الاتحاد السوفياتي الى ما هو أبعد بكثير... الى كل تلك المناطق والأصقاع التي ترزح شعوبها تحت نير الظلم والاضطهاد والاستغلال والاستعمار.

إزاء ذلك، أصبحت مقاومة هذا التيار ضرورة حتمية، كي لا تنتقل عدوى هذه الحركة التحررية الى كل بقعة تنوق الى الحرية والاستقلال.

وما أكثر هؤلاء الأعداء في الواقع، حيث لم يتركوا وسيلة إلا واستخدموها من أجل هدف مركزي يتمثل بتشويه صورة الاتحاد السوفياتي وثورته، وصولاً الى ما يضمن المحافظة على مواقعهم... ومصالحتهم الاستعمارية الكبيرة في المستعمرات والبلدان التابعة، وبالتالي إيقاف هذا المد الثوري، التحرري الذي يهدد العالم بانتفاضات وتمردات تقض مضاجع المعسكر الرأسمالي الاستعماري... ولم يخرج «أعداء الداخل» عن أهداف «أعداء الخارج» في هذا المضمار، حتى ولو كانوا يحملون الجنسية الروسية، على الرغم من قلة عددهم. وقد وصل الأمر بأحد هؤلاء، وهو «يوري راسفوروف» الموظف السابق في السفارة السوفياتية في طوكيو الذي اختار الحرية - كما قالت الدوائر الغربية - حيث قال: «ان المواطن السوفياتي لا يترك

حدود الاتحاد السوفياتي بمهمة فردية ولا بصفته الشخصية، وليس ثمة سواح سوفيات. وحيشما كان ثمة مواطنون روس في السفارات والقنصليات والبعثات التجارية والثقافية وحتى في الفرق الرياضية، فإنهم جميعاً جواسيس وعملاء سرّيين».

واذا علم «يوري راسفوروف» أن أكبر جواسيس السوفيات في بلد جميل كالسويد، لا يحمل جنسية سوفياتية ولا ينتمي لأية سفارة من سفاراتها ولا لأية قنصلية ويعتد من بعثاتها المختلفة فماذا سيكون موقفه اذن؟ ومن منطلق الدفاع عن الحقيقة، باعتبارنا لسنا بمحامي دفاع عن السوفيات ولا عن جاسوسيتهم، لأنهم ليسوا بحاجة الى مدافعة، فإنه يتوجب علينا أن نشير الى حقيقة الجاسوسية الروسية في السويد التي تلقي أضواء كاشفة على دقة العمل المخابراتي السوفياتي، وتنسف.. . بالتالي زيف كل الاتهامات التي يرشقها الأعداء بموسكو والكرملين

فما هي قصة التجسس السوفياتي في السويد؟ ومن هو بطل هذه القصة؟ وكيف تمكن جهاز الاستخبارات الروسي من التغلغل في نخاع هذه الدولة المشهورة بروعتها وجمالها؟.

يعتبر الكولونيل «ستيخ فرنستروم» من أمهر الجواسيس وأعظمهم في السويد والذين قدموا خدمات جلى الى المعسكر الاشتراكي عامة، والاتحاد السوفياتي على وجه الخصوص.

ففي صباح ٢٠ يونيو ١٩٦٣ كان رجل طويل القامة يجتاز بخطوات واسعة جسراً في وسط ستوكهولم عندما اعترض طريقه فجأة ثلاثة من رجال الشرطة السرية، فقدم أحدهم نفسه بلطف ثم قال أنه مكلف بالقبض عليه، فلم يعترض الرجل، بل تبع رجال الشرطة السرية في هدوء حتى سيارتهم الواقفة على مقربة من المكان. وهكذا وبطريقة سريعة وهادئة انتهت القصة المثيرة للعقيد فرنستروم، وهو من أنجح الجواسيس الذين استخدمهم السوفيات منذ بداية الحرب الباردة.

هز السويد نبأ القبض على «ستيغ فنرستروم» ولم تبالغ العناوين المثيرة لصحف ستوكهولم حين قالت :

«أكبر فضيحة للجاسوسية شهدتها السويد - عقيد سويدي يبيع أسراراً خطيرة بقيمة لا تقدر. عقيد سويدي كان يعمل لحساب الروس»، بلغت موجة الصدمة لندن وواشنطن لأن العقيد تاجر بأعمال الجاسوسية بالجملة وباع أسراراً عسكرية لا تتعلق بالسويد فحسب وإنما بانكلترا والولايات المتحدة وبحلف الأطلسي أيضاً. واعترف في النهاية أنه ارتكب مئة وستين عملاً (١٦٠) من أعمال الجاسوسية ضد السويد، ومن بين هذه الأعمال أنه باع للروس أسرار الدفاع الجوي السويدي والتصميمات التفصيلية لإحداث الطائرات السويدية ومعلومات عن الصواريخ البريطانية والأميركية. وقدرت المحكمة التي حكمت عليه بالسجن مدى الحياة أنه تقاضى من مؤجريه السوفيات ما يقرب من خمسمائة ألف كورون.

وقد أثار توقيفه شكوك ستوكهولم وواشنطن. فقد كان فنرستروم وزوجته محبوبين ومعروفين في حفلات الكوكتيل، وكانت الزوجة «أولا جريتا كارلسون» على شيء من الخفة وفاتنة إلى حد بعيد. أما العقيد الذي يبلغ من العمر ٥٦ سنة فقد كان متحفظاً ولكنه كان ذا حديث جذاب. كانت النساء يجدنه ساحراً. كان رياضيّ البنية وذا وجه ناعم، قسماته واضحة، غير متفضنة، يحتفظ بنضرة الشباب رغم تقدم العمر.

وسرعان ما أثارت قضية فنرستروم جدلاً سياسياً في السويد. فقد تساءلت المعارضة عن كيفية استطاعة ضابط عظيم أن يواصل عمليات التجسس وعلى نطاق واسع طوال هذه المدة دون أن، ينكشف أمره؟ ولم يكن أقل من ذلك غرابة كيف استطاع رجل له ماضٍ نظيف كفنرستروم أن يصبح خائناً. وأين تكمن نقطة الضعف؟.

لم يكن فنرستروم، على ما يظهر، من الذين تفكر مصلحة الاستخبارات السوفياتية في أن تستخدمه كجاسوس. فهو لم يكن يبدو أبداً أنه

يعطف على اليسار المتطرف، لم يكن يعرض نفسه للتشهير بسهولة لأنه لم يكن من المصابين بشذوذ جنسي أو المقامرین أو زير نساء. فقد أجمع الناس على أنه ظل شديد التعلق بزوجته التي تزوجها من ٢٤ سنة، وبإبنتيه اللتين بلغتا من العمر حين توقيفه ٢١ و ١٧ سنة.

وميزته الوحيدة - إن صح التعبير - أنه كان سويدياً معتدلاً عديم الشأن. كان قنوعاً زاهداً في الأكل والشرب، وكانت رياضته المفضلة هي الجولف واللعب على الثلج، كما كان يحب أن، يلعب البريدج، ولم يكن موسيقياً ولم يكن يهتم قط بالفنون. وربما أحب كثرة التردد على الحفلات ولكن سلوكه كان سليماً لا مأخذ عليه.

وحتى أن أصدقاءه لم يتوصلوا، إلا بعد فوات الأوان، أن يتذكروا كلمة واحدة كشفت بدقة عن شيء ما. ففي مأدبة عشاء دعي إليها، ألقى أحد الضيوف كلمة أشاد فيها باللغة الفرنسية، فرد فنستروم قائلاً: «ينبغي رؤية الأشياء كما هي: خلال بضع سنوات لن تبقى هناك لغات ذات أهمية عالمية إلا لغة ونصف لغة، ستكون الانكليزية هي نصف اللغة وستكون الروسية هي اللغة السائدة».

لم ينشر هذا التعليق حينئذ، أي ظل من الشك، ولكن مثل هذه الصراحة من فنستروم، كان أمراً نادراً. فقد اعتاد بصورة عامة أن يتجنب الدخول في أية مناقشة تتعلق بالسياسة أو الشؤون الخارجية.

كانت دماثة خلقه تخفي وراءها شخصية غامضة الى حد لا يرتاب فيه أي انسان باستثناء، سادته الروس. وبعد اعتقاله ظلت الشرطة تستجوبه لعدة شهور، وقام أخصائي اجتماعي باستجواب ما يقرب من عشرين شخصاً من أقاربه وأصدقائه لمحاولة كشف الأسباب الخفية التي دفعته الى الخيانة. فلا هذا التحقيق ولا ذلك الذي قمت به شخصياً - يقول ايروين روس - في واشنطن وستوكهولم أتاحا لي اختراق الواجهة التي كانت تحميه.

إن أمراً واحداً قد وضع وهو أن فنستروم كان رجلاً متكبراً جداً،

ويتحرق لأن يلعب دوراً أكبر مما تسمح به وسائله، وقد بدا له أن «التجسس لحساب دولة كبيرة» هو مغامرة مثيرة يعد نفسه لأن يلعب فيها دوراً أولياً، وقد غذى الروس أنانيته بمهارة.

ولد فرنستروم في ٢٢ آب / أغسطس سنة ١٩٠٦ في أسرة ضباط. وكان صبياً خجولاً منطوياً على نفسه، ولم يكن له في طفولته غير أصدقاء صادقين قليلين. وكان يبدو أنه لم يكن على علاقة طيبة مع أبيه الذي كان رجلاً متباعداً ومنظماً، بينما كانت علاقاته بأمه أكثر حباً، وكان بعض أصدقائه ينظرون إليه باعتباره رجلاً جباناً كدجاجة مبللة، ولذا أصابتهم الدهشة عندما رأوه قد انخرط في السلك العسكري.

ورغب دائماً منذ ذلك التاريخ في تحسين وضعه. فعندما كان غيره من الضباط الشباب يجتمعون معاً في المساء للهو، كان فرنستروم يلزم غرفته ليواصل دراسته للغة الروسية. لقد قرر أن يتعلم اللغة الروسية - كما قال للمحققين - لأنه كان يعتقد أن هذه اللغة قد تفيده يوماً ما في المستقبل.

وبعد أن تدرّب في البحرية انتقل إلى السلاح الجوي بعد قليل من عام ١٩٣٠. وفي شتاء ١٩٣٣ - ١٩٣٤ منحه وزارة الدفاع زيارة مجانية لإتقان اللغة الروسية. وخلال هذه الزيارة لـ «ريجا» تيقظ اهتمامه بالجاسوسية، حيث كانت «ريجا» عاصمة ليتوانيا المستقلة ورمز «أصفاء» مشهور جداً على الحدود السوفياتية، والمدينة تكتظ بالجواسيس و«باعة مواشير المعلومات» والدبلوماسيين والعملاء المزدوجين. وقد تعرف فرنستروم على الحياة المثيرة لهذا العالم الذي يخيم عليه الظلال والغموض عندما تعرف على عميل بريطاني تحدث إليه بصراحة عن عمله وكان تعارفهما مبعث المصادفة وتبادل الحديث ولكن البذرة كانت قد غرست. وفي «ريجا» أيضاً تذوق فرنستروم طعم معايشة المجتمع الدبلوماسي. فلقد استقبل في حفلات بعض السفارات وقد ذكر خلال التحقيق: «أنه نجح تماماً في هذا النوع من الحياة الاجتماعية». ولقد كان يتحين الفرص دائماً لأن يغشى المجتمع.

وفي عام ١٩٣٩، بعد عودته من «ريجا» تزوج فرنستروم من «اولا جريتا كارلسون» ابنة رجل ثري يشغل منصباً رفيعاً في جريدة تصدر في ستوكهولم. وكانت «اولا» تصغر زوجها بثلاثة عشر عاماً وتجهه الى درجة العبادة فخضعت لسيطرته. وما انفكت تدعي منذ اعتقاله أنها كانت تجهل دائماً نشاطاته في الجاسوسية. وفي عام ١٩٤٠ كان قد أرسل فرنستروم الى موسكو كملحق عسكري لا سيما بسبب معرفته الشاملة للغة الروسية. وكان ميثاق التحالف الالمانى - السوفياتي لا يزال قائماً في ذلك الوقت، ولكن العلاقات أخذت تزداد توتراً بين المتحالفين.

وأقام فرنستروم اتصالات مع أقرانه من السفارات الأخرى وبصورة خاصة مع الألمان. وربما كانت علاقاته ككثير من العسكريين السويديين في هذه المرحلة من الحرب، أكثر توثقاً مع المانيا، وعلى كل حال فإن هناك أمراً واحداً أكيداً لا شك فيه: هو أنه لم يكن يجد أي وازع أخلاقي يمنعه من أن يقدم للنازيين كافة المعلومات التي استطاع جمعها عن الاتحاد السوفياتي خلال عمله. وقدر الالمان خدماته فسهلوا له الحصول على الروبيلات من السوق السوداء. وبعد عودته الى السويد في مارس ١٩٤٠، ظل فرنستروم على علاقاته الودية مع السفارة الالمانية. وفي عام ١٩٤٣ اكتشفت مصلحة المخابرات السويدية رموز الشيفرة الالمانية ووجدت اسم العقيد مذكوراً في برقيات مرسلة الى برلين من السفارة الالمانية باعتباره مصدراً للمعلومات. وعلى أثر ذلك راقبت السلطات السويدية اتصالاته الهاتفية ولكنها لم تكتشف على ما يبدو شيئاً يدينه أكثر من ذلك. وفي تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٤٣، نقل فرنستروم الى قاعدة «ساتيناس» الجوية على الساحل الغربي من السويد. وبعد مضي عامين نقل الى منصب عسكري في ستوكهولم حيث كانت اتصالاته الهامة مع الاميركيين والروس، وغالباً ما كان فرنستروم يعمل كمراقب و مترجم للضباط السوفيات عندما يأتون الى السويد لزيارة بعض المنشآت الجوية.

وقد أنجز أول عمل تجسسي لحساب السوفيات في أواخر عام ١٩٤٨،

اذ علم فرنستروم أن، الكولونيل «ايفان بتروفيتش ريباشنكو» الملحق الجوي السوفياتي في ستوكهولم يظهر اهتماماً بقاعدة جوية جديدة في إنسويد، فعرض عليه فرنستروم هذا الاقتراح:

«إذا كانت هذه القاعدة الجوية لها مثل هذه الأهمية لك فإن بإمكانني أن أقول لك ما أعرفه عنها مقابل (٥٠٠٠) خمسة آلاف كورون». وبدت الدهشة واضحة على ريباشنكو ثم أجابه بأنه سينظر في الأمر. وبعد بضعة أسابيع تقابل الرجلان في حفلة كوكتيل دبلوماسية. وبينما هما... يتصافحان تمت ريباشنكو: اتفقنا.

وتقابلا للمرة الثانية في إحدى المناسبات الاجتماعية، وبعد ذلك ذهب الروسي بفرنستروم الى منزله، وأعطاه، وهما يفترقان، رزمة تحتوي على المبلغ المتفق عليه. وتسلم فيما بعد خريطة تحدد مكان القاعدة الجوية. ويصرح فرنستروم بأن السبب الذي دفعه الى القيام بهذه العملية كان رغبته في التسلل الى شبكات الجاسوسية الروسية لإفادة الولايات المتحدة الاميركية منها. وهو يصر على أن اتصالاته الاولى بالمخابرات الاميركية تعود الى عام ١٩٤٦ حيث فاجأ أحد العملاء الاميركيين في ذلك الوقت بأن أسر اليه بأن اسم فرنستروم وجد في سجلات شبكة التجسس الالمانية خلال سني الحرب.

واقترح هذا العميل أنه ما دام قد عمل سابقاً لصالح الالمان ضد الروس أن يقبل بالتعاون مع الاميركيين. فوافق فرنستروم، وكانت المهمة التي اقترحت عليه متواضعة وهي أنه عندما دعي رسمياً لحضور عرض جوي في موسكو أن يرسل بالبريد أثناء مزوره بلنينغراد طرداً يعتقد فرنستروم أنه كان يحتوي على صمامات جهاز راديو.

ويقول فرنستروم أنه مضت ستان قبل أن يتصل مرة أخرى بالمخابرات الاميركية. وفي هذه المرة حدثه أحد العملاء الاميركيين مطولاً عن أساليب التجسس وخاصة عن أساليب - العميل المزدوج - ان هذا الموضوع أغرى

فرنستروم الى درجة جعلته يقرر أن يصبح هو نفسه عميلاً مزدوجاً على الرغم من أن العميل الاميركي لم يقترح عليه أن ينطلق بهذه المغامرة. وبكداية لذلك عرض هو خدماته على العقيد ريباشنكو الروسي.

ان السلطات الاميركية نفت بشدة أن يكون فرنستروم قد عمل لحساب مخابراتها، وعدا ذلك فإن قصة الجاسوس لا تقوم على أساس. لماذا اقترح عليه الاميركيون عام ١٩٤٦ مهمة صغيرة كإرسال طرد من ليننغراد سيما وأنهم لم يطلبوا منه شيئاً خلال الستين التاليتين؟ أما ادعاءه في أنه اندفع في العمالة المزدوجة بدون حافز، ففيه شطط في حسن الظن بالناس.

والتفسير الأكثر قبولاً هو أنه استسلم للإغراء الذي أتاح له الحصول بسهولة على الخمسة آلاف كورون. فإنه لم يكن طوال مدة اشتغاله بالتجسس عديم الاكتراث بالمال. وقد يكون له أيضاً حافز آخر. ففي عام ١٩٤٨ عندما كان برتبة مقدم، أبلغ بأنه لن يرفع الى رتبة قائد اسطول جوي كان يعلل نفسه بها، وعرض عليه بدلاً من ذلك أن يوفد الى موسكو كملحق جوي.

وكان عدم حصوله على رتبة قائد اسطول جوي معناه أنه فقد الى الأبد أمله في تجاوز رتبة عقيد. فأصيب فرنستروم بخيبة مريرة ولعله قد وجد متعة في نوع من الانتقام في كل مرة يبيع فيها سراً عسكرياً سويدياً. ولكن فرنستروم عندما سلم الخريطة المذكورة الى ريباشنكو قد وافق على الاستمرار بالاتصال بمصالح المخابرات السوفياتية بعد وصوله الى موسكو وقد تسلم عمله كملحق جوي في ٢٧ يناير ١٩٤٩ وبقي فيه طيلة ثلاث سنوات.

وقد برهن الروس في معاملتهم لهذا الرجل عن مهارة نفسية فائقة. فاستغلوا الخيبة التي يديها على الصعيد المسلكي واستثاروا غروره ودعموا في كل مناسبة الفكرة العالمية التي يحملها عن نفسه.

أما كيف استغل السوفيات الكولونيل «ستيغ فرنستروم» وجعلوا منه عميلاً «من الدرجة الأولى» بعد أن فتحوا له رصيذاً غير محدود، ومنحوه لقب «النسر» الاصطلاحي، ورتبة «لواء» التي لم يكن له أي حظ في الحصول عليها في خدمة السويد؟.

هذا ما سنذكره بالتفصيل في القسم الثاني من هذه الدراسة.

النسر وتغلغل المخابرات السوفياتية في نخاع السويد (٢)

ليست معرفة الحروب والمعارك وأبطالها من اختصاص العسكريين وحدهم، وإنما هي معرفة أو هواية لأكثر الناس في كل زمان ومكان. اذ لم يخل عصر من العصور التاريخية دون أن تكون الحروب والمعارك من المحطات البارزة في سجل أحداثه الطويل. كما أن البطل لا يعتبر ابن وطنه، ولا فتى عصره فحسب، وإنما هو ابن الجماهير في العالم كله وفتى جميع العصور. والذين تألفت أسماؤهم ودوت شهرتهم قبل عشرات ومئات السنين استمر تألقهم وشهرتهم عبر الزمان والمكان دليل صدق على تقدير النبوغ وشاهد اثبات على احترام البطولة.

وعندما أثبتت تجارب التاريخ بأن البطولة لا تظهر فقط في الحروب والمعارك، وكثيراً ما تتجلى في أعمال الجاسوسية والمخابرات، فإننا نستطيع تصنيف بعض الأشخاص الذين نجحوا في ممارسة هذه المهنة وخاصة في إطار خدمة الشعوب الضعيفة ومصالحها، نستطيع تصنيفهم في عداد الأبطال. وكان من بين هؤلاء بالطبع الكولونيل ستيف فرنستروم-جاسوس الاتحاد السوفياتي في السويد.

لقد أحسنت الاستخبارات السوفياتية في التقائهما «للمفتاح» الذي دخلت بواسطته إلى إحراز النجاح الكبير في تجنيد فرنستروم لصالح موسكو، بعد أن اكتشفت الثغرة التي تحكم من خلالها قبضتها على جميع ما تحوزه من أسرار.

ولقد برهن الروس فعلاً في معاملتهم لهذا الرجل عن مهارة نفسية فائقة عبر استغلالهم الخيبة التي يبدونها على الصعيد المسلكي واستثاروا غروره ودعموا في كل مناسبة الفكرة العالمية التي يحملها عن نفسه .

ولم يطل الأمر حتى جعلوا منه عميلاً «من الدرجة الأولى» وفتحوا له رصيلاً غير محدود ومنحوه لقب «النسر» الاصطلاحي ورتبة «لواء» التي لم يكن له أي حظ في الحصول عليها في خدمة السويد .

وعندما تسلم فنرستروم عمله كملحق جوي سويدي في موسكو بتاريخ ٢٧ يناير ١٩٤٩ كانت المخابرات السوفياتية قد تغلغلت في جميع شرايينه وحتى في نخاعه الشوكي .

ففي موسكو عهد الى فنرستروم أن يتصل بضابط من مرتبة الأمراء عرفه باسم «بيوتر بافلوفتش ليمينوف» وتأثر فنرستروم تأثيراً عظيماً بليمينوف الذي وصفه السويدي بأنه رجل «ذو مقدرة» تكاد تكون مغناطيسية على استمالة مساعديه اليه .

وعني ليمينوف بفنرستروم عناية خاصة وظل نقطة الاتصال الوحيدة بينه وبين مصالح المخابرات السوفياتية حتى النهاية .

وعندما غادر فنرستروم الاتحاد السوفياتي في عام ١٩٥٢ بقي الرجلان على اتصال عن طريق المراسلة، حيث كانت مراسلاتهما فريدة من نوعها في تاريخ الجاسوسية، لأن السويدي يؤكد أنه كان يكتب الى ليمينوف عن أخبار عائلته ويحدثه عن جولاته في المجتمع وعن كل همومه وشجونيه . كان ليمينوف الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يثق به الى درجة جعلت العقيد نفسه يعترف بأنه عرف فيه أفضل صديق .

وقد التقط فنرستروم خلال اقامته في موسكو كافة الايضاحات الممكنة عن الدفاع الجوي البريطاني الذي كان يعتبره الروس أفضل دفاع في العالم . وبفضل اتصالاته بسفارة الولايات المتحدة كما يقول، استطاع أن يقدم

للروس بعض المعلومات التي كان الاميركيون يجمعونها عن الاهداف في الاراضي السوفياتية.

وخلال الشهور التي سبقت سفره من موسكو عرف فرنستروم أن منصبه التالي سيكون في واشنطن، حيث لن يعمل كملحق جوي فقط بل سيشارك أيضاً في شراء تجهيزات أميركية للطيران السويدي. وقد سر اللواء ليمينوف سروراً عظيماً بذلك حيث كان لديه عدد كبير من مهام معينة ليعهد بها الى فرنستروم في الولايات المتحدة أهمها الحصول على معلومات تكتيكية عن آخر التطورات الأميركية فيما يتعلق بالطائرات والصواريخ ومصوبات القصف والراديو والرادار والأجهزة الالكترونية الصغيرة.

وعلى الرغم من أن فرنستروم وصل الى واشنطن في ٨ ابريل ١٩٥٢ فإنه لم يستقبل زميله السوفياتي اللواء فيكتور كوفينوف إلا في أغسطس، حيث زاره في السفارة السويدية وأعطاه كلمة السر وهي «نيكولا فاسيليفيتش يرجوك أن تذكره» ثم أعطاه ورقة ذكر فيها مكان لقائهما القادم. كان اللواء ككل من جاء بعده من ضباط الارتباط السوفيات الآخرين ينظم اتصاله - الذي يبدو مصادفة - مع فرنستروم في حديقة عامة أو في شارع وسط المدينة.

وفي كل مرة كان الرجلان يتظاهران بالدهشة لهذه المصادفة ويتصافحان ثم يسيران معاً بضعة خطوات. وكان فرنستروم الذي صور كافة الوثائق التي يريد تسليمها على فيلم مصغر - ميكروفيلم - يسلم لفيفة الفيلم الى كوفينوف أثناء المصافحة بينهما باليد. وكان يتخذ من سفارة السوفيات أيضاً ميداناً لعمليات التسليم وذلك خلال الاستقبالات الدبلوماسية الكبيرة. فكان فرنستروم يترك الأفلام في جيب معطفه الخارجي بغرفة المعاطف حيث يأتي كوفينوف لتفريغ هذا الجيب على مهل.

وقد تسلم فرنستروم مبلغ خمسة آلاف دولار - كدفعة أولى - وبلغ متوسط ما دفعه له مستخدموه السوفيات كما يقول خلال السنوات الخمس التي قضاها في واشنطن ٧٥٠ دولار شهرياً. وكان يحرص على عدم تبذير

المال هنا وهناك. وكانت تودع في حساب مفتوح باسمه في موسكو مبالغ إضافية يمني نفسه بالانتفاع منها حين إحالته على المعاش. ولم يحدد أبدا الرقم الذي بلغته هذه المدخرات.

وبعد القبض على فرنستروم حاولت المخابرات الاميركية أن تعيد بناء مجده الغابر. وتزعم وزارة الخارجية أنها لا تعرف ما هي المعلومات التي نقلها فرنستروم الى الروس. وصرح روبرت مكنمارا وزير الدفاع أن نشاط الجاسوس السويدي لم يكن ذا شأن فيما يتعلق «بالأسلحة الجارية الاستعمال». ولكنه من الممكن «أن يكون تلقى بعض المعلومات التي تتعلق بتصميم المعدات العسكرية الاميركية» وهذا أمر كثير الاحتمال لأن السويد كانت تشتري تجهيزات من الولايات المتحدة بمقتضى برنامج المعونة العسكرية وقد اعتادت وزارة الدفاع الاميركية أن تثق بالملحقين العسكريين السويديين.

ان سنوات ١٩٥٧ - ١٩٦٣ تمثل ذروة النشاط التجسسي الذي قام به فرنستروم. فبعد عودته الى ستوكهولم عين رئيساً لقسم القوات الجوية في قيادة الدفاع. وكانت تحال اليه بصورة روتينية في كل يوم كافة أنواع الوثائق السرية: خطط العمليات ومعلومات عن المنشآت والأسلحة الحديثة وأجهزة الدفاع الجوي. وكان مكلفاً عدا ذلك بأن يبلغ وزير الدفاع عن الصواريخ الموجهة. وقد أتاح له هذا الأمر أن يتوصل الى الوثائق السرية الواردة من الولايات المتحدة - وربما بسهولة أكثر منها في واشنطن ورغماً عن الرقابة فقد أمكن لفرنستروم بالاستناد الى محضر وتصريحات الأوساط السويدية الكثيرة الاطلاع أن يحصل على فكرة عن مدى الأسرار العسكرية المسلمة الى الروس خلال هذه الفترة. فقد أفشى فرنستروم كل أسرار الدفاع الجوي السويدي، وهو نظام نصف تلقائي يضم الرادار والحاسبات الالكترونية التي تسجل طريق وسرعة أي طائرة مهاجمة. كما باع معلومات تتعلق بالمطاردات المضادة من نوع دريكن ج - ٣٥ التي صنعت في السويد، كما زودهم أيضاً بتفصيلات فنية عن - فيجن - الحديثة، هذه الطائرة التي تفوق سرعتها سرعة

الصوت ويمكن أن تلعب دور مقاتلة أو قاذفة قنابل أو طائرة استطلاعية والتي كان يجب اعتبارها في النهاية دعامة طيران القتال السويدي .

واعتباراً من سنة ١٩٥٩ بدأت السويد في الحصول على الصواريخ الأميركية من نوع «سايدوندر» وهي قذيفة صاروخية تطلق من الجو الى الجو وتسبق سرعة الصوت وتسليح بها طائرات - دريكن - وصواريخ فالكون - وهي قذيفة صاروخية أكبر حجماً تطلق من الجو الى الجو وصواريخ - هوك - وهي تطلق من الأرض الى الجو في لحظة الدفاع ضد الطائرات المهاجمة التي تطير على ارتفاع منخفض .

واشترى السويديون أيضاً صواريخ بريطانية من نوع - بلود هاوند - وهي قذيفة صاروخية تطلق من الأرض الى الجو على ارتفاع شاهق .

وقد أرسل فنرستروم الى موسكو معلومات سرية عن كل من هذه الأسلحة، كما زود الروس زيادة على ذلك في كل مرة يستطيعها بمعلومات عن النشاطات التي يقوم بها حلف الأطلسي مثل تعزيز القوات الأميركية في البحر الأبيض المتوسط ابان أزمة السويس ووضع «الخطة الفورية» لمواجهة التهديد السوفيياتي لبرلين الغربية . وفي نهاية ١٩٥٩ علمت مصلحة الأمن السويدي بأن فنرستروم أثار الشكوك بين بعض زملائه بفضوله الجشع حيال وثائق سرية تبدو أنها تتعلق قط بعمله . وحصل «اوتو دانيلسون» مدير الأمن العام على اذن بمراقبة محادثات الكولونيل فنرستروم الهاتفية، كما وضعه هو نفسه أيضاً تحت المراقبة بصورة متقطعة .

ولكن فنرستروم كان شديد الحذر جداً من أن يخاطر بنفسه في محادثة هاتفية ويبدو أنه كان يتمتع بحاسة سادسة أشعرته بوجود الشرطة . فقد مر دانيلسون ذات يوم وهو يركب سيارة جديدة من طراز مرسيدس بشارع صغير هادئ في الضاحية التي يقيم فيها الجاسوس، وكان هذا الأخير جالساً في سيارته الخاصة فاستدار بسيارته على الطريق وتبع سيارة الشرطة اذ بدا من الواضح أنه لاحظ انها سيارة غريبة في هذه الأنحاء .

وكانت الأدلة عن حالة فنرستروم المالية غير قاطعة أيضاً. فقد أنفق زيادة على دخله حوالي ١٧٥٠٠ كورون في عام ١٩٦٠ وستة آلاف كورون في عام ١٩٦١، ولكنه يحتمل أن والذي زوجته الغنيين كانا يساعدانه مالياً. وعلى الرغم من أنه لا يمكن توجيه أية تهمة اليه فإن الشرطة قد اهتمت اهتماماً كافياً لتحويل دون تعيينه في منصب يمكنه من التجسس. وكان من المقرر أن يحال على التقاعد في يونيو ١٩٦١ ولكن كثيراً ما يتولى الضابط الذي يحال على التقاعد في السويد عملاً مكتئباً في مؤسسة عسكرية لزيادة معاشه. وقد تقدم فنرستروم في شهر مارس بطلب لتعيينه في عمل تقاعدي في هيئة أركان حرب القوات الجوية، وهو العمل الذي سيشغله بعد يونيو ١٩٦١ والذي سيساعده للوصول الى كل الوثائق السرية المتعلقة بالسلاح الجوي. ولكن وزارة الدفاع رفضت تعيينه في هذا المنصب بناء على عدم موافقة الأمن العام.

وقد وجد في النهاية عملاً في وزارة الخارجية وعين فيها كمستشار لشؤون نزع السلاح للإشتراك في الأعمال التحضيرية لمؤتمر نزع السلاح في جنيف، لأن المحاذير أقل لهذا المنصب بالنسبة لرجل تحوم حوله بعض الشكوك.

كان هذا القرار هو الأول في سلسلة من الأخطاء الجسيمة التي ارتكبتها الإدارة. وقد أبلغ وزير الخارجية السويدية «اوستن اوندن» بالشكوك التي تحيط بفنرستروم. ولكن الشرطة خوفاً من تسرب شيء من هذا الموضوع رفضت أن يذكر ذلك لأي شخص آخر في وزارة الخارجية فلم يعد اذن من الممكن مراقبة فنرستروم في عمله الجديد.

وما كاد يستقر فنرستروم في هذا العمل حتى بدأ يقوم بزيارة زملائه القدامى في السلاح الجوي ويسألهم عن معلومات سرية. وكان يشرح لهم أنه يحتاج اليها للإستعانة بها في عمله كخبير في شؤون نزع السلاح. وكان يحصل غالباً على المعلومات التي يريدتها. وفي يوليو ١٩٦٢ بذلت أخيراً

محاولة لتحديد اطلاق فرنستروم على الوثائق السرية بحيث ينبغي أن يمر في المستقبل كل طلب من هذا النوع عن طريق رئيس مصلحة المخابرات العقيد - بوفستين - ولكن هنا حدثت فوضى جديدة إذ أن أحداً لم يبلغ هذا الأمر الى مصلحة النشر والمطبوعات في الدفاع الوطني حيث دأب فرنستروم على جمع المعلومات السرية بحرية تامة.

ومع ذلك لم يكن لدى الشرطة أي دليل قوي ضده. كان لديه جهاز لاسلكي ذو موجات قصيرة. غير أن ابنة فرنستروم الصغرى أبلغت ذلك للشرطة بصورة عفوية عندما ذكرت في محادثة هاتفية أن والدها يملك أغرب جهاز راديو في العالم، لا يستقبل إلا الاتحاد السوفياتي فقط.

وكان يمكن للشرطة أن تحصل على مذكرة بتفتيش منزله، ولكنها كانت تخشى ألا تكتشف شيئاً فتضيع القضية كلها. ولذا عمل دانيلسون وزملاؤه في مايو ١٩٦٣ على الاتصال مع السيدة كارين روزين وهي خادمة تعتني بتدبير منزل أسرة فرنستروم لتشغيلها كمخبرة سرية. فقبلت أن تتعاون معهم بكل طيبة خاطر. ولو سبق للشرطة أن استعانت بها لأمكنها الظفر قبل ذلك بعام.

لقد ساورت الشكوك منذ وقت طويل، هذه السيدة الهادئة وهي امرأة في الخمسين من عمرها بسبب التجهيزات الغريبة التي يمتلكها وهي حامل كبير تتدلى فوقه صمامات كهربائية وجهاز تصوير، افترضت بحق أنه يستخدم في تصوير وثائق، وصندوق حديدي مخبأ خلف ستارة في حجرة المخزن، وجهاز راديو لم تر مثله في حياتها مثبت داخل مكتبه. وأوضحت السيدة أن الكولونيل فرنستروم كان يحتبس نفسه بعد أن يقفل عليه بالمفتاح ساعات طويلة للتصوير في الحجرة.

وبعد ذلك بشهر تقريباً اتصلت السيدة روزين في صباح أحد الأيام بالشرطة هاتفياً تبلغها أنها عثرت على رزمتين غريبتين تحت نشارة من الخشب في غرفة المؤونة العلوية حيث اكتشفت فيهما لفائف من الأفلام. وأخيراً حصلت الشرطة على الدلائل التي تساعدها على التدخل. وفي اليوم

التالي كان فرنستروم قد أوقف

حدث الأمر في حينه اذ أن الكولونيل الجاسوس كان يتهاى للهرب من البلاد وقد أنذره حادث طفيف وقع أثناء حفلة استقبال في السفارة البريطانية . فقد اقترب فرنستروم ببشاشة من اللواء «نورستن راب» القائد العام للقوات السويدية المسلحة الذي يعرفه منذ وقت طويل، ولكن «راب» عبس في وجهه وخاف فرنستروم فجأة من أن يكون اللواء قد شك بأمره . ولم يخطيء ظنه بذلك .

وبعد القبض عليه زعم الكولونيل فرنستروم في البداية أنه عضو في جمعية سرية تعارض النظام الحاضر في الاتحاد السوفياتي . ثم أكد أنه كان يتجسس ضد الولايات المتحدة وليس ضد السويد . ولما لم تنجح هذه المزاعم انتقل الى الاعترافات . وخلال الأشهر الأربعة الأولى من التحقيق معه ظل يتظاهر بموقف مليء بالوقار .

ولكن هذا الموقف ما لبث أن انهار في شهر اكتوبر عندما حاول أن يتحرر بابتلاع جرعة مميتة من الحبوب المنومة . ولو أنه نجح في ذلك لحصلت زوجته على معاش لأنه لم يكن قد أدين بعد، وقد أثبت الفحص النفسي أنه سليم العقل تماماً رغم انهياره العصبي . وبعد عدة أسابيع من العلاج النفسي السريع استعاد توازنه واستأنفت الشرطة التحقيق معه وقام معظم التحقيق بصورة عامة على عرض الوثائق السرية على المتهم وسؤاله عما اذا كان قد نقلها الى الاتحاد السوفياتي . وفرنستروم لم يطلب الرحمة من المحكمة . وقال في لهجة لا تخلو من بعض الزهو والصلف : «ان نشاطي كان جزءاً من الجاسوسية العالمية التي تقوم بين الدول الكبرى والذي هو نفسه عامل من عوامل الحرب الباردة» ثم أعلن قائلاً : «انني على استعداد لتحمل النتائج القضائية لأعمالي» .

وكان من الممكن أن تكون هذه النتائج أشد سوءاً في بعض البلاد الأخرى . ولكن في السويد البلد الانساني فإن الحكم بالسجن المؤبد الذي

صدر بحقه يعني الإفراج عنه بعد عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة من سجنه اذا سلك سلوكاً حسناً. ومع ذلك فقد أعلن اللواء راب بأنه ينبغي صرف ٢٩٥ مليون كورون لإصلاح الضرر الذي لحقه بنظام البلاد الدفاعي.

ويقول ايروين روس بهذا الصدد: كنت في ستوكهولم في يوليو ١٩٦٤ بعد شهر من صدور الحكم عليه. وكانت الأوساط الحكومية لا تزال بعد تحت وطأة هذه القضية. وكان أقوى عتاب يمكن توجيهه الى المسؤولين أنها عينت فنرستروم في وزارة الخارجية على الرغم من الشكوك التي كانت لا تزال تثار حوله عندما كان في وزارة الدفاع. وهناك أمر لا يمكن تفسيره مطلقاً وهو أن نعتقد بأننا مجبرون على الاحتفاظ به بعد إحالته على المعاش في وظائف رسمية جسيمة المسؤوليات كهذه. والأمر الوحيد الذي يمكن تفسيره أن قليلاً جداً من الموظفين كانوا يؤيدون الشكوك التي ثارت حوله.

وفي رأيهم أن العقيد كان زميلاً جديراً بالاحترام فكيف يمكن لهم أن يصدقوا أن جندياً قضى حياة حفلت كلها بخدمات رفيعة يمكن أن يخون بلاده؟ ومن الواضح أن الحكومة السويدية قد عالجت هذه القضية على أعلى صعيدها الرسمي بعدم اكتراث يصعب فهمه. ففي مطلع ابريل ١٩٦٢ بعد أربعة عشر شهراً تقريباً من القبض على فنرستروم جرى الاتفاق مع وزير العدل بأن يطلع المدعي العام فيرنر راينجر رئيس الوزراء السويدي «تاج ايرلاندر» على القضية. ولكن راينجر أصيب بمرض وتأجلت المقابلة الى ١٣ ابريل. وفي هذا اليوم انشغل رئيس الوزراء الى حد حال دون استقبال المدعي العام ولم يحاول أحد أن يعيد التجربة فيثير قضية فنرستروم مرة أخرى.

وبعد قليل من توقيف الكولونيل اضطر رئيس الوزراء الى أن يصرح: يا للأسف انني لم ألتق أبداً ما يوحي بأن الأمر يتعلق بقضية هامة جداً.

وفي موضوع الجاسوسية يبدو أن كافة البلاد تحتاج الى هزة كبيرة لتفقد سذاجتها. فلم يعتقل في السويد خلال فترة ما بعد الحرب إلا جواسيس من

مستوى صغير لم يكن لديهم غير مصادر محدودة للمعلومات. وقد كانت قضية فرنستروم درساً خطيراً للسويد كما كانت قضية «هيس» للولايات المتحدة قبلها.

وأثبت الاتحاد السوفياتي عبر تجربته التجسسية بأنه قادر في كل لحظة على أن يشعر الولايات المتحدة الاميركية ودول حلف شمالي الأطلسي بأجمعها على أنها لا تستطيع التنفس إلا الهواء الذي يسمح لها به الاتحاد السوفياتي لرئيتها. وعدا ذلك فإنها مهددة بخطر الاختناق اذا مارس عليها الروس عملية «حظر الهواء».

ويبدو أن ذلك أصبح الهاجس الكبير لدول المعسكر الامبريالي كله.

المراجع

- ١ - ج. برنارد هاتون. «مدرسة الجواسيس» ترجمة غسان درويش. المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر. بيروت ١٩٦٣. ص ٧ و ٢٠٧ و ٢٢٠.
- ٢ - مجلة «الشرطة» السورية (تصدر عن دائرة الشرطة في القطر العربي السوري).

المخابرات السوفياتية تتغلغل في نخاع اسرائيل

إن الذين ينتقلون على رؤوس أصابعهم، غير الذين يضربون الأرض بأقدامهم الثقيلة ومن يظن نفسه منزهاً عن الخطأ والاختراق، سرعان ما يكتشف بأنه قد نُخرحتى العظم، وتغلغلت المخابرات في شرايينه تماماً كما يتغلغل الدم.

والملاحظ أن الاستخبارات السوفياتية هي التي احترفت هذا النوع من التغلغل، وكان لها قصب السبق في هذا المضمار، ليس في نخاع أميركا وبريطانيا فحسب، وإنما في نخاع اسرائيل، التي تدّعي بأنها «دولة لا تقهر».

فكيف تمكن السوفيات من التغلغل في نخاع اسرائيل؟ وكيف كان ذلك؟.

يعتبر «اسرائيل بير» خبير الشؤون العسكرية وأقرب المقربين الى بن غوريون ورئيس قسم العمليات والتخطيط في مقر قيادة الجيش... بطل هذه العملية ومخرجها.

ولقد امتعض «اسرائيل بير» أو «بيكة» كما لقبه الناس أشد الامتعاض لاستدعاء «ايسر هرثيل» له، فقد كانت الرسالة التي تسلمها منه فظة غليظة: «تعال الى مكنتي». وكان «بير» الذي اشتهر بأنه خبير في الشؤون العسكرية وواحد من أقرب المقربين الى بن غوريون شخصية بارزة في الحياة الاسرائيلية العامة.

وقد هاجر «اسرائيل بير» هذا من النمسا الى فلسطين، وانخرط في

جيش الهاغانا، السري، وعمل بتفوق في الجيش عدة سنوات، وقد ساعدته قدرته الذهنية على التحليل، وما حظي به من تدريب عسكري أكاديمي، على الرقي السريع في معارج الجيش، حتى أصبح برتبة كولونيل أخيراً. وفي أثناء «حرب الاستقلال» اختير «اسرائيل بير» لرئاسة قسم العمليات والتخطيط في مقر قيادة الجيش. وكان كثيراً ما يرى بصحبة رئيس الوزراء في المناسبات الرسمية.

وخرج «بير» من الجيش عام ١٩٥٠ ليمتحن السياسة، ولكنه حافظ على اهتمامه بالأمور العسكرية وعلى صلته بها. وكان يحضر اجتماعات رئاسة الأركان البالغة السرية، ويحصل على ما يشاء من معلومات، وكانت خطط الجيش ومخططاته ووثائق الدفاع ذات الأهمية القصوى تجد سبيلها إلى يده. وفي عام ١٩٥٥ طلب منه أن يكتب تاريخاً رسمياً «لحرب الاستقلال»، وخصصت له غرفة في وزارة الدفاع ليقوم بأبحاثه فيها.

وشاعت شهرة «بير» بوصفه خبيراً عسكرياً حتى في خارج اسرائيل، وكان يلقي المحاضرات فيما يتصل بالحرب من موضوعات في العديد من البلدان الأوروبية. ولا سيما في ألمانيا، التي ترك فيها انطباعاً عميقاً لدى بعض الشخصيات البارزة كالسياسي «فرانتس جوزف شتراوس»... ورئيس جهاز الاستخبارات «راينهاردت غيلهن». وكان «بير» في جولات محاضراته بألمانيا ينبّه جمهور الشبان المستمعين إليه أشد التنبيه إلى واجبه ووطنهم وإلى الحاجة لجعل ألمانيا دولة ديمقراطية قوية في مواجهة «الخطر الشيوعي القادم من الشرق».

واستحوذ بير على إعجاب قيادة حلف شمالي الأطلسي - الناتو - في أوروبا للتحليلات البارة التي قدمها عن الاستراتيجية اللازمة في حالة نشوب حرب برية في أوروبا. وقد أثنى عليه موظفو وزارة الدفاع الفرنسية علانية، لفهمه الواسع المدى لمختلف الشؤون العسكرية.

ولم يكن من المستغرب إذن أن يمتعض «بير» عندما استدعاه ليسر

هرثيل بخشونة ذات مساء من خريف ١٩٦٠، اذ لم يُبَدِ هرثيل من الاحترام ما يتفق مع مكانته البارزة.

ولم يقم «بير» بأي جهد لإخفاء انزعاجه عندما مشى في مكتب أيسر والسيجار في فمه، ثم ألقى نفسه في الكرسي المقابل لمكتب رئيس الموساد، ونفض «بير» الرماد عن سيجاره بنقرة من إبهامه تدل على الإزدراء، ثم انحنى في كرسيه الى الأمام وقال ببساطة: لندخل في صميم الموضوع، فأنا مستعجل.

وحَدَّق أيسر الى العينين اللتين لا تطرقان في رأس البروفسور الأصلع، وكانت جميع ملامح الوجه الزائر، ذي الشارب الأصفر المميز الذي بدت فيه آثار زمامد السيجار تشير الى الاختقار الموجه الى هرثيل، ولكن هذا لم يكن ممن يفزعون بسهولة، فواصل التحديق الى وجه «بير»، وهو يوجه اليه سؤالين موجزين قصيرين:

لماذا واصلت زيارتك الى برلين الشرقية؟ ولماذا سافرت الى بولندا؟.

وظهر هرثيل بمظهر الدكاتور الذي يتخذه أحياناً، ورفع صوته قائلاً: أَلَمْ أَحذَرَك قبلاً من الاختلاط بالشيوعيين؟.

وضرب المنضدة التي أمامه بقبضتي يديه بشدة وصاح: إنني أحذرك يا بير، وأمنعك من السفر الى أوروبا.

وعندئذ وثب البروفسور على قدميه غاضباً، فلم يكن أحد، حتى بن عوريون نفسه يجرؤ على التحدث اليه على هذا النحو، وأجاب صائحاً: «اهتم بشؤونك الخاصة، فسوف أشكوك الى رئيس الوزراء، بل سأشكوك الى الحزب أيضاً». وعندئذ اندفع خارجاً من مكتب هرثيل.

وانقضت عدة دقائق، ورئيس الموساد يفكر في صمت، فقد كانت الشكوك تساوره بشأن «اسرائيل بير» عدة سنوات. كان هذا قد كتب سلسلة من المقالات المعادية لأمريكا في أثناء الحرب الكورية، وكان «أيسر» يعلم

أن «بير»، برغم انضمامه الى حزب بن غوريون (الماباي) الآن، كان متميماً فيما مضى الى جماعة المابام، وهي الجناح اليساري الأكثر تطرفاً، وكان للبروفسور نشاط قوي في مناهضة الشيوعية آنذاك مما أدى به الى تلك الجماعة أخيراً. ولم ينضم الى التحالف الحاكم برئاسة بن غوريون إلا متأخراً، وأصبح نهجه الجديد هو: «قل يعيش بن غوريون، ثم افعل ما تشاء».

ولم يكن ايسر ليحارب «بير» على انتمائه السياسي، ولكنه كان يعجب لقدرة الرجل على تغيير انتمائه على ذلك النحو السريع الحاسم.

أما رئيس الموساد فلم يكن متميماً الى أي حزب ولكنه يعي ما يعتقده وعياً تاماً، وكانت انتهازية الرجل تثير الشكوك في نفسه.

وبعد رحيل الخبير العسكري المفاجيء، انزعج ايسر الجالس في مكتبه مرة أخرى لشيء قاله، ألا وهو التحذير الذي وجهه «بير» حال مغادرته بقوله: «سوف أشكوك الى الحزب» فما الذي يقصده بذلك؟ كان بير يعلم أن ايسر لا ينتمي الى أحزاب.

كان للطريقة الطائشة التي ألقى بها «بير» عبارته الغريبة الى أيسر ما لتلك العبارة نفسها من مفاجأة، وبدا ذلك التحذير ارتكاساً ذهنياً وحضاً صادراً عن رجل اعتاد تمثيل شخصية المحلل المنطقي، البعيدة عن الانفعال، وإذن، فقد وثبت الغريزة من مكنمها، وبرزت من قناع التعقيدات الفكرية التي تميز به «بير».

ومن قبل أحس ايسر بالانزعاج بشأن «بير»، كما أحس بضرورة اطلاع بن غوريون على ذلك، وقد نقل اهتمامه الى رئيس الوزراء. يظن أن ايسر يصدر في أمره هذا عن غيرة من شهرة «بير» ونفوذه. بيد أن ايسر لم يتراجع لذلك. فذهب في الحال لمقابلة رئيسه وطرح أمامه جميع الأسباب الكامنة وراء الشكوك التي تساوره، وقال: «يقوم «بير» منذ مدة بجمع معلومات

عسكرية لا تتصل به في شيء، وهو يزور المدن الشيوعية في رحلاته الى أوروبا وتربطه صداقة - مسرفة - مع الدبلوماسيين الروس العاملين في إسرائيل الذين يقابلهم كثيراً.

وقد بدت في حياة «بير» الاجتماعية بعض الجوانب الغربية مؤخراً، فهو ينفق أموالاً طائلة، تزيد عما يكسب، في ملاهي تل أبيب. وعندما كان في ميونيخ مؤخراً دفع مبلغ ٢٠٠ دولار دون أدنى اهتمام. وقد كان يشتري لنفسه ولعشيقاته، ومنهن من يشك في سلوكهن، ملابس كثيرة غالية الأثمان. أما علاقاته مع زوجته «رفكا» فهي سيئة جداً. وهو يقضي ليلاته يعاقر الراح في الحانات، كحانة أتوم - في شارع بن يهودا. وكان صوت ايسر مفعماً بالغضب لفساد أخلاق «بير». فهو لم يعرف الانغماس في هذه الرذائل طيلة حياته.

وقال ايسر: من الجلي عندي، أن بير يعاني من اجهاد ما، هو إجهاد العميل الذي يمثل دورين في الحياة، ومنذ وقت قريب تورط في فضيحة عامة: فقد هاجمه زوج إحدى عشيقاته، ووجه إليه لكلمات في وجهه، وهشم بعض أسنانه.

وكان بير قد أخبر رئيس الوزراء بأنه فقد تلك الأسنان في حادث سيارة واختار بن غوريون تعليله ذلك على ما قاله ايسر، وبقي راسخاً في عدم الاقتناع بدعاوي ايسر.

ورد بن غوريون بهدوء: «من واجبك أن ترتاب في كل شخص كائناً من كان، أما أنا فنقتي مطلقة بهذا الرجل».

وانتهت المقابلة بينهما بذلك، ولكن المسألة بقيت قائمة لدى ايسر هرثيل، ومن مزايا هذا الرجل أنه لم يكن أمعة عند بن غوريون، ولو كانت شخصيته أضعف من حقيقتها لتحاشى انتقاد أحد المقربين من رئيس الوزراء، ولكنه اختار الجانب المضاد، فأمر عملاءه بتشديد الرقابة على بير. وأخذ فريق لأعمال التحري ينقب في ماضيه للتأكد من وجود جوانب مريبة، أو

انصاف حقائق في سيرة حياته كما خبر بها أصدقاءه وزملاءه .

كان ايسر يسعى للتحقق من واحد من - تخميناته - المشهورة .

وفي ليل ٢٨/٣/١٩٦١، بعد حوالي ثمانية أشهر من المواجهة الدرامية التي تمت بين ايسر هرثيل واسرائيل بير في مكتب الموساد، كان اليهود يحتفلون بعيد الفصح، وهو واحد من أخصب الأعياد وأحبها الى اليهود، ففيه يحتفلون بالخلاص من ربة العبودية في مصر، وفي منازل اليهود في جميع أرجاء العالم، تجلس العائلات حول الموائد لتناول - السيدير - وهي وجبة عيد الفصح التقليدية التي تتلى معها حكاية الخلاص .

وفي الساعة الثامنة من ذلك المساء، خرج رجل من شقته الواقعة في ٦٧ شارع برانديس في تل أبيب، وكان المساء دافئاً، ولكن النسيم العليل الذي يهب من البحر الأبيض المتوسط الى الشاطئ حمل ذلك الرجل الى تزيير معطفه، وكانت في يده حقيبة أوراق جلدية . . وأسرع الرجل خطاه في الشارع الخالي من المارة، وهو يتلفت حوله، كما لو أراد التأكد من أن أحداً لا يقتفي خطاه . واستدار الى شارع جانبي وتوقف قليلاً في ظل حجرة للهاتف، وكان يلهث آنذاك بالرغم من أنه لم يتعد أكثر من مئتي متر عن شقته التي خرج منها، وتوقف لحظات قليلة لالتقاط أنفاسه، ثم تلفت من حوله مرة أخرى . ولما لم يلحظ أحداً في الجوار انطلق منحدرأ في الشارع الى مقهى صغير واقع في أقرب زاوية من زواياه .

وسعد صاحب المقهى الذي كان يجلس وراء الباب بمشاهدة أول زبون يراه في ذلك المساء . وطلب هذا الزبون زجاجة كونيأك، ومضى بها الى منضدة في زاوية الحانة، بعيداً عن أضواء الشارع الساطعة، ووضع حقيبة أوراقه الجلدية على مقعد مجاور . ولما حاول صاحب المقهى أن يفتح مع الزبون محادثة ودية، أجابه هذا إجابة جافة، معبرة عن عدم رغبته في الحديث، ومضى يحتمي الكونيأك في صمت . ثم أشعل الرجل سيجارة ونظر بقلق الى ساعته .

وبعد خمس دقائق، دخل رجل آخر المقهى، وكان يرتدي بذلة سوداء قاتمة، وعلى رأسه قبعة ذات حافة عريضة وبعد أن لَوَّح بيده للزبون الجالس، اقترب منه وجلس على كرسي مقابل له حول المنضدة.

ولم يتبادل الرجلان شيئاً من الحديث، وبعد لحظات من الجلوس نهض الوافد وخرج من المقهى. وفي يده كانت حقيبة أوراق للرجل الآخر.

وبعد ثوان معدودات، نهض الزبون الأول، ودفع ثمن الشراب، وبدون أن ينس بينت شقة غادر المقهى، ليلفه الليل، في حين شرع صاحب المقهى في كنسه وتنظيفه. وفي الخارج تلفت الرجل الطويل حوله مرة أخرى، قبل أن يسير نحو منزله، وعاد أدراجه في الطريق الذي جاء فيه، وإن كان صفر اليدين الآن.

وعندما بلغ الرجل الطويل باب المبنى، الذي تقع فيه شقته دخل منه دون أن يكلف نفسه عناء التلفت فيما حوله، كان مطمئناً إلى أن أحداً لم يتعقبه. وبعد أن صعد الدرج المؤدي إلى شقته دخل فيها واتجه صوب مكتبه، التي تعمر جدرانها كتب من عدة لغات. وهناك جلس يرتقب. منتصف الليل، صوت سيارة يمزق سكون الليل في ذلك الشارع. وعند رقم ٦٧ أوقفت السيارة ونزل منها الرجل الغريب ذو القبعة، وهو الرجل الثاني الذي زار المقهى القريب قبل بضع ساعات. وكانت في يده حقيبة الأوراق التي أخذها من صاحبه. وسار هذا الرجل إلى باب المبنى رقم ٦٧، ودخل بدون أن يطرق الباب، ومن الواضح أن قدومه لم يكن مفاجئاً. وإنه لم يتوقع المكوث طويلاً، فقد ترك محرك سيارته بدون توقف.

دق جرس الهاتف في منزل ايسر هرثيل وتناول ايسر السماعة على الفور، فقد كان ينتظر هذه المكالمة، التي عرف فيها صوت واحد من كبار عملائه، ولم يكن من داع للإعتذار عن المكالمة في ليلة العيد تلك:

«جرت مقابلة بين رجلنا، وبين رجل الاتصال الروسي للمرة الثانية في

هذا المساء فقد تقابلا في المقهى الصغير الذي تعرفه، وكان مع رجلنا حقيية أوراق سلمها الى رجل الاتصال، ثم افترقا.

وقمت بتعقب خطى رجلنا حتى المنزل، وأنا الآن في خارج المكان، وقد دخل الرجل الروسي قبل لحظات ومعه حقيية الأوراق التي تسلمها في المقهى، وهو مع رجلنا الآن في الداخل.

وكان ايسر بالغ القلق، ولكنه لم يفاجأ بما حدث. فرقم ٦٧ شارع برانديس هو عنوان اقامة اسرائيل بير.

قرر ايسر أن الوقت قد حان ليضرب ضربته. ولكن ينبغي أن يتم كل شيء بطريقة صحيحة وبارعة، فإلقاء القبض على البروفسور الآن وهو متلبس بتسليم الوثائق الى أحد الدبلوماسيين السوفيات الذي عرف عنه أنه أكبر جواسيس روسيا في اسرائيل، سيكون له انعكاسات دولية وربما أدى الى اسقاط حكومة بن غوريون.

وقرر ايسر الانتظار حتى يغادر الدبلوماسي منزل اسرائيل بير واعتقاله. ينبغي أن يتم كل شيء بطريقة قانونية أو ألا يحدث البتة.

وبعد أن وضع ايسر سماعة الهاتف رفعها على الفور مرة أخرى واتصل بين غوريون. لم تستغرق محادثتهما أكثر من عشر دقائق، قال فيها ايسر: «سألقي القبض على اسرائيل بير هذه الليلة».

وتردد بن غوريون لحظة ثم قال: «قم بواجبك». وانتهت المحادثة بذلك... كانت الساعة تشير الى منتصف الثالثة في الصباح واسرائيل بير جالس يقرأ في مكتبته، وحقيية الأوراق ملقاة على المنضدة القريبة، في الموضع الذي تركها فيه بعد مغادرة زائره دون المساس بشيء من محتوياتها. وفجأة سمع طرقة على الباب.

وقبل أن يتمكن من إخفاء الحقيية، أو حتى النهوض من كرسية العتيق، انكسر الباب وكانت ضربة - معلم - وحيدة كافية لخلعه من مفصلاته.

واندفع صف من سبعة رجال في داخل الشقة، ووقفوا من حول بير الذي كان منتصباً متجمداً في كرسيه، وقال له أحدهم بهدوء: «انك معتقل الآن، ولدينا أمر بتفتيش الشقة».

وشاهد بير الضابط يوجه بصره الى حقييته، وأجاب بهدوء بتلك الكلمات التي تفوه بها بن غوريون قبل ساعات في المكالمات الهاتفية مع هرتيل: «قم بواجبك».

وكان بير يعلم حق العلم من هو ضابط الاستخبارات المضادة الذي تحدث اليه، فقد كان يعرف اسمه الشخصي منذ عدة سنوات، ولم يزد على أن قال: هل تمنع في أن أدخن؟ كان ضابط الموساد المسؤول عن اعتقال بير يعلم أنه يتعامل مع رجل من أبرز رجالات البلد. فقد كان بير محاضراً في مدرسة الجيش التي يتدرب فيها الضابط، وكان كولونيلاً في الاحتياط ومستشاراً ناصحاً لوزارة الدفاع ورئيس الوزراء نفسه، وقد أحس الحاضرون بالصدمة جميعاً، إذ لم يكن العملاء يصدقون إن الرجل الذي قدموا لاعتقاله إنما كان واحداً من جواسيس السوفييات... ألا يمكن أن يكونوا مخطئين في شأنه؟ لقد كانوا يتمنون ذلك...

بيد أن شكوكهم مهما كان أمرها، سرعان ما تبددت عندما فتح الضابط حقيبة الجلد التي كانت ما تزال ملقاة على المنضدة القريبة من بير. وفي داخل الحقيبة شاهد الضابط عدداً من الوثائق البالغة السرية ومنها قائمة مفصلة لمصانع الأسلحة الكبرى في اسرائيل، وفوق ذلك كله شاهدوا مفكرة بن غوريون الخاصة، التي استعارها البروفسور حين عبر له عن رغبته في كتابة سلسلة من المقالات عن فلسفة بن غوريون في القيادة والحكم، ولم تكن هذه المفكرة تحتوي على أكثر أفكار بن غوريون خصوصية فحسب، بل كانت تحتوي فوق ذلك على عدد من أسرار الدولة التي كان وزراء الحكومة يجهلون بعضاً منها. عندما قدم ايسر هرتيل مفكرة بن غوريون اليه، علق رئيس الوزراء على ذلك متبرماً: «كنت غارقاً في محيط من الأكاذيب».

ومن الواضح الجلي أن الحادث كان أليم الوقع على نفسه . وقد أحجم
إيسر عن الإشارة الى أنه أعرب عن ارتياحه من بير في وقت مبكر يعود الى
١٩٥٣ . ومن الأمور التي تسجل له ولموشي دايان أن كلاهما قد قاوم رغبة بير
في الالتحاق بالجيش ، وأن بير قد اتكأ على صداقته مع بن غوريون في مقابل
ذلك ليتم تعيينه مستشاراً رسمياً في وزارة الدفاع ليتسنى له الوصول الى جميع
ما لها من وثائق .

اطمان إيسر الآن الى أن بير كان يعمل لصالح موسكو عدة سنوات .
ولكن هذا لم يعترف بشيء في أيام الاستجواب الأولى ، وبقي يكرر تلك
الصورة التي يرسمها لسيرة حياته أمام أصدقائه وزملائه عدة سنوات .

وفقاً لرواية بير عن سيرة حياته ، ولد في فيينا عام ١٩١٢ ، وهاجر والديه
الى الولايات المتحدة ، ولكنهما عادا الى أوروبا بعد وقت قصير ، ودرس بير
الانسانيات والأدب الألماني في جامعة فيينا حيث تتلمذ - كما زعم - على يد
ماكس راينهاردت ، رجل المسرح المعروف . . . وفي أثناء دراسته بالجامعة
انضم الى الطلاب الذين تمردوا ضد الدكتاتور «انغلبرت دولفوس» . . واشترك
في حرب الشوارع ضد النازيين عام ١٩٣٤ ، وتدرّب في أكاديمية - فينز
نويشنات - العسكرية ، كما قال وأصبح ضابطاً في - الشوتسبان - أو حلف
الدفاع النمساوي .

وفي عام ١٩٣٦ ، كما قال بير ، ذهب الى اسبانيا للقتال الى جانب لواء
الأمميين ضد الفاشيين في الحرب الأهلية الاسبانية ، وقد خوّله تدريبه
العسكري أن يصبح مدرباً هناك ، وتعرف بير على جميع كبار العسكريين
الشيوعيين واشترك معهم في معركتي مدريد وغواد البحارا . . . الشهيرتين ،
وساهم بير أيضاً في معركة تيرول الضارية . وفي أوائل عام ١٩٣٨ ، حين تبين
أن الحرب ستكون خاسرة ، هرب من اسبانيا وطلب منه السفر الى موسكو
ليتلقي تدريباً اضافياً . ولكنه بدلاً من ذلك ، عاد الى فيينا ، حيث تأثر بالفكر
الصهيوني ، وبعد وقت قصير صبح عزمه على الهجرة الى فلسطين . وقال بير

لأسريه متحدياً: «هذه هي قصة حياتي، مثلما تعرفون جميعاً».

وفي ذلك اليوم الرابع من بدء الاستجواب، زاره ايسر هرتيل، وكان هذا يعلم أن الأسير لا يبدي أي تعاون من جانبه، فدبر شيئاً ما لمواجهة.

وحقق هرتيل الى عيني بير، كما فعل في لقائهما الأول، قبل عدة أشهر، وقال له بنبرة هادئة، وعنيدة في الوقت نفسه: «أنا أعرف أنك جاسوس سوفياتي، أخبرني بالحقيقة. اذا تعاونت معنا فسوف تسهل الأمر على الجميع، وعلى نفسك أيضاً. أخبرني حكايتك الحقيقية».

وفي مواجهة هذا التحدي، أعاد بير القصة ذاتها مرة أخرى حتى اذا فرغ منها قال له هرتيل بهدوء: «كذاب! لم نجد أي أثر لوالديك في النمسا، ولو كانا يهوديين نموذجيين، كما تدعي، فلماذا لا تكون مختوناً؟».

لقد فحصنا جميع السجلات النمساوية، فتوصلنا الى أنك لم تقاتل في متاريس الشوارع، ولم تحصل على شهادة الدكتوراه كما تدعي، بل أنك لم تدرس في الجامعة، ثم أنك لم تذهب الى الأكاديمية العسكرية، فقد كان هذا محظوراً على اليهود آنذاك. وقد طلبنا دراسة قوائم الأسماء فلم يعثر على اسمك فيها، وليس اسمك موجوداً في قوائم الشوتسبان كذلك.

«ونقبنا في سجلات لواء الأميين، ولم نعثر على اسمك فيه، أنك لم تحارب قط في اسبانيا، والواقع أنك لم تساهم في أية حملة عسكرية في أي مكان من العالم. والآن قل لي: من أنت؟ أخبرنا بالحقيقة».

واتضح لبير أن الموساد قد عرف زيف ادعاءاته، فانهار، وفي الأيام الثلاثة التالية أملى تقريراً وافياً بنشاطاته التجسسية.

وكان هرتيل قد اشتبه في أن موسكوف قد - نشطت - بير بعيد حملة السويس عام ١٩٥٦ وألحّت عليه عندئذ في تقديم أية معلومات يمكنه الحصول عليها. وعندما كانت فرنسا تزود اسرائيل بالأسلحة نقل بير تفصيلات كمية ونوعية ما يصل الى اسرائيل منها، وكذلك فعل بصدد

الأسلحة التي اشترتها اسرائيل من ألمانيا، كما أنه جمع ما استطاع من المعلومات عن دور ألمانيا في حلف الأطلسي - الناتو - أثناء سفره الى ألمانيا. وكانت أبحاث بير العلمية الخاصة، في التكنولوجيا النووية خصوصاً، حد الموضوعات التي يحتمل أن يكون رؤساء بير في موسكو قد طالبوه بتقديم معلومات عنها.

وبقي بير يمزج الوهم بالحقيقة، حتى في أثناء بوحه باعترافاته، فقام عملاء الموساد وحلفاؤهم في اسرائيل وأوروبا، ومنها البلدان الشيوعية بالتحقق من كل كلمة تفوه بها، وأثبت البحث الدؤوب الذي قاموا به بطلان الكثير من ادعاءاته.

بدأت محاكمة بير في يونيو ١٩٦١، وأدت طبيعة الكثير من الأدلة في قضيته الى بقائها سراً، وكذلك بقيت بعض اعترافاته بشأن الطريقة الدقيقة التي نقل بها المعلومات الى موسكو سراً مكتوماً حتى يومنا هذا. ومن المعلوم على كل حال، أنه قد نقل للروس خططاً عسكرية تتصل بتكتيك القتال، كما نقل قوائم عن منشآت عسكرية سرية، فضلاً عن معلومات حول من يزودون اسرائيل بالأسلحة من الأجانب.

وفي أثناء المحاكمة، دافع بير عن نفسه بأنه فعل ما فعله لاعتبارات وطنية. وقال: «لقد شعرت بأن من واجبي المساهمة في انقاذ اسرائيل من الوقوع في قبضة القوى الغربية. وأعتقد أن على اسرائيل التحالف مع البلدان الشيوعية، وأنا لم أحن اسرائيل قط وإنما كانت جميع جهودي رامية الى ابعادها عن الطريق المؤدي بها الى كارثة سياسية».

وأخيراً حكم على اسرائيل بير بالسجن مدة عشر سنوات واستأنف الحكم، ولكن عقوبته زيدت الى ١٥ سنة. وبينما كان يقضي في سجن شطة بغور الأردن ألف كتاباً يبرر فيه أعمال التجسس التي قام بها على أسس ايدولوجية. وبقي في السجن حتى مايو ١٩٦٨ عندما أصابته نوبة قلبية توفي على أثرها.

والواقع إنه حين فر اللاجئون في الثلاثينات من المانيا والنمسا مع
تعاظم قوة هتلر، انضم الى صفوفهم عملاء السوفيات الناطقون بالألمانية.
ويكاد يكون من المؤكد أن اسرائيل بير هو أحد عملاء السوفيات في هذه
الموجة.

وقد لقي السوفيات عناء كبيراً في تزويده بتغطية مضمونة مما يدل على
إنهم اعتبروه واحداً من أخطر عملائهم في الشرق الأوسط. وبعد دخول بير
السجن، اكتشف عملاء الموساد في النمسا أن شخصاً سمي له كان يعيش
هناك، وكان هذا طالباً يهودياً فقيراً يشبه بعض الشبه العميل الذي أصبح
صديق بن غوريون الثقة فيما بعد. أما اسرائيل بير الحقيقي فقد اختفى سنة
١٩٣٨، وهي السنة التي هاجر العميل فيها الى فلسطين ولم يسمع به أحد
بعد ذلك.

وانتظر الروس حوالي ٢٠ سنة وهي فترة طويلة جداً لإرسال رجلهم الى
الميدان. وغني عن البيان انهم قد توقعوا منه انجازات كثيرة، وحصلوا على
ما توقعوا بالفعل، فقد نقل بير كميات هائلة من المعلومات العسكرية من تل
أبيب الى موسكو.

بيد أن أحداً لا يدري حتى يومنا هذا هوية اسرائيل بير الحقيقية. من
أين جاء؟ وكيف جرى تجنيده؟ ومن كان يتلقى الأوامر؟.

إن الاجابة على هذه الأسئلة تقبع مطمورة في ملفات الاستخبارات
السوفياتية، وفي قبر العميل الذي كان يسمى نفسه «اسرائيل بير».

في ظل هذا الواقع، نجد أنفسنا - نحن الشعب العربي - مجبرين على
أن لا نعيش سعداء على قيد الحياة، لأننا مجبرون على الوجود في بيوت غير
بيوتنا، وفي أرض غير أرضنا، وإن متنا فإننا مجبرون على أن ندفن في قبور
نرفضها ولا نتمناها...

تلك هي سياسة الاحتلال وشرعية الاغتصاب.

وليس في قاموسنا أهم من اغتصاب الأرض والوطن على طريق اغتصاب الوجود من الأساس. تلك هي القوة بدون حق، وذلك هو الحق بغياب القوة.

تناقضات رهية تكلفنا وجودنا وحياتنا في هذا الزمن الذي أصبح فيه عنق الحق على مقصلة... «العدل الدولي» والعالم كله شاهد زور يدلي باعتراقاته المناهضة لمشينة التاريخ البشري وإرادته... ولكن الحق في النهاية هو المنتصر.

المراجع

- ١ - دينيس أيزنبرغ وآخرون «الموساد جهاز المخابرات الاسرائيلية السري». المؤسسة العربية للدراسات والنشر ودار الجليل للنشر. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨١. ص ٩٥ - ١٠٤.
- ٢ - ج. برنارد هاتون «مدرسة الجواسيس» ترجمة غسان درويش. المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر. بيروت. يونيو ١٩٦٣. ص ١٩٥ - ٢٠٣.
- ٣ - زفي ألدوبي وجيرولد بالينغر «الجاسوسية الاسرائيلية وحرب الأيام الستة» تعريب غسان النوفلي. بيروت ١٩٧٢. ص ١٢٣ - ١٢٤.

المخابرات السوفياتية تستولي على كنوز اسبانيا

كم هي جهنمية لعبة المخابرات، وكم هي خطيرة آثار عملياتها، والمخابرات السوفياتية عريقة جداً في هذا المضمار.

ففي الثاني والعشرين من شهر اكتوبر/ تشرين أول ١٩٣٦ قامت المخابرات السوفياتية بأخطر عملية من نوعها في تاريخ السيطرة على الذهب بعد أن نفذت بإشراف ستالين نفسه أكبر عملية استيلاء على كنوز اسبانيا ونقلها الى موسكو.

فما هو سر هذه العملية الجهنمية؟ وكيف كانت انعكاساتها؟.

يعتبر الجنرال «الكسندر أورلوف» أول الهاربين الى الولايات المتحدة الاميركية بعد أن شغل رئاسة قسم مكافحة الجاسوسية في المخابرات السوفياتية. وهو الذي أشرف مباشرة على عملية الاستيلاء على الذهب الاسباني ونقله الى موسكو فيقول:

توجهنا مساء ٢٢ / ١٠ / ١٩٣٦ بالسيارة الى (قرطاجة) وهي ميناء على الساحل الجنوبي الشرقي لاسبانيا وقد جلس بجاني نائب وزير المالية الاسباني وهو غير قادر على اخفاء عصبيته، بينما سار وراءنا طابور يضم ٢٠ سيارة نقل حمولة كل منها خمسة أطنان. وكانت وجهتنا الى التلال التي تبعد خمسة أميال عن قرطاجة حيث يوجد مستودع الذخائر للبحرية الاسبانية. ولكننا كنا نسعى الى شيء أهم من البارود والقنابل.

كان الليل قد أرخى سدوله عندما توقفت قافلتنا. ولم ألحظ إلا بعد نزولنا من السيارة تلك الأبواب الخشبية الثقيلة التي تدعمها قضبان حديدية، وقد أقيمت في مواجهة سفح التل. وقد قام على حراستها بعض العسكريين، ولما تأكد الحارس من هويتنا جذب مسماراً ضخماً ففتح باب مزدوج على مصراعيه ورأينا أمامنا كهفاً فسيحاً مضاء بالمصابيح الكهربائية المموهة. وفي الداخل وقف ٦٠ بحاراً إسبانياً بانتظار أوامرنا بينما تكدست أمام الجدران ألوف الصناديق الخشبية الجديدة. وكان في هذه الصناديق سبائك وعمليات تقدر بمئات الملايين من الجنيهات، هي كنز أمة عتيقة جمعتها عبر القرون. وهذا هو الشيء الذي جئت من أجله وكانت مهمتي نقله الى موسكو. حدث هذا في الأشهر الأولى للحرب الأهلية الإسبانية. وكنت قد أمضيت عشرة أيام أقوم بتنظيم (عملية نقل الذهب)، بعد أن فر عدد من الزعماء الجمهوريين الأسبان ابداع هذا الكنز في مكان أمين لدى «جوزف ستالين» خوفاً من أن يقع بين يدي الجنرال فرانكو وقواته الوطنية المتقدمة في حينه باتجاه مدريد.

وكان نقل الجزء الأكبر من الذهب (المقدر بـ ٦٠٠ مليون دولار) موضوع شائعات أو افتراضات منذ ثلاثين سنة، ولم يبق من الرجال الذين اشتركوا في العملية سوى اثنين: أنا (الجنرال الكسندر أورلوف) والآخر إسباني وهو الدكتور «جوان نجران» وزير المالية الإسباني في حينه.

كنت قد وصلت الى مدريد في ١٦ / ٩ / ١٩٣٦ بعد شهرين من اندلاع الحرب الأهلية لكي أراس بعثة سوفياتية كبيرة من المخابرات تضم خبراء مختلفين. ولما كنت جنرالاً في إدارة المخابرات السوفياتية فقد كنت بطبيعة الحال كبير المستشارين السوفيات لدى الحكومة الجمهورية لشؤون المخابرات ومكافحة التجسس وحرب العصابات وهو منصب عليّ توليه لمدة عامين. وكنت كغيري من الروس في إسبانيا أؤيد قضية الجمهوريين بكل إخلاص.

أقمنا مكتباً لعملنا في الطابق الأعلى من السفارة السوفياتية في مدريد

وتحت تصرفنا جهاز لاسلكي قوي . وكنت قد أمضيت هناك أقل من شهر عندما أقبل كاتب الشيفرة الذي يعمل معي الى مكتبي ، وتحت ابطه كتاب الشيفرة وبين يديه رسالة برقية قال عنها : انها وصلت الآن من موسكو وهي بعنوان «سري للغاية» باسم (شويد) أي اسمي الحركي لدى المخابرات السوفياتية . وقد قمت فوراً بفك رموزها التي كانت عبارة عن ملاحظة استهلاكية من الجنرال «نيكولاي ايجوف» رئيس إدارة المخابرات السوفياتية ثم جاء بالبرقية ما يلي : «رتب مع لارجوكا باليرو رئيس الوزراء ، شحن احتياطي الذهب الاسباني الى الاتحاد السوفياتي . استخدم سفينة سوفياتية ، حافظ على أقصى قدر من السرية . اذا طالب الاسبان بإيصال فارفض - أكرر - ارفض . قل ان ايصالاً رسمياً سيصدر في موسكو عن بنك الدولة ، انني أعتبرك مسؤولاً شخصياً عن العملية . التوقيع (ايفان فاسيليفتش وهو الاسم الحركي لستالين بالذات)» . والواقع أن فكرة (حماية) الذهب من الوقوع في يدي الوطنيين بإرساله الى روسيا قد وضعها أصلاً الزعماء الجمهوريون المنزعجون أنفسهم حيث كان الوطنيون بقيادة الجنرال فرانكو يضيقون الخناق حول مدريد . وبدا سقوط المدينة وشيكاً . وصدر مرسوم «سري» في ١٣ سبتمبر ، وقعه الرئيس «مانوريل ازاناء» ووزير المالية الدكتور «جوان نجران» بنقل الذهب والفضة من خزائن بنك اسبانيا . وقد منح هذا المرسوم وزير المالية سلطة نقل المعادن الثمينة من مدريد الى المكان الذي يكفل في رأيه أفضل قدر من الأمن . ونص هذا المرسوم على أن عملية النقل سوف تعرض على «الكوريتز» أي البرلمان الاسباني للتصديق عليها ولكن هذا لم يحدث مطلقاً .

ومهما كان من أمر شرعية المرسوم فإنه بلا شك لم يكن يتوقع شحن هذا الكثر خارج البلاد . ولكن بعد أن تدهور الموقف العسكري وسع «جوان نجران» سلطته بدافع اليأس وقام بجس نبض الملحقات التجاري السوفياتي حول اختزان الذهب في روسيا وذلك بعلم رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء فقط . وأبرق الى موسكو فأسرع ستالين الى انتهاز الفرصة .

وبعد مرور يومين على وصول برقية ستالين اليّ قمت بالتباحث مع «جوان نجران» في مبني سفارتنا. كان وزير المالية الاسباني (استاذ الفيزيولوجيا) الوافد حديثاً الى مقاعد الحكم نموذجاً صادقاً للشخص المثقف الذي يعارض الشيوعية من الناحية النظرية. إلا أنه بعطف بصورة مبهمة على «التجربة العظمى» التي تجري في الاتحاد السوفياتي. وهذه السذاجة السياسية تساعد على تفسير الدافع الذي جعله يسمح بتصدير كنز بلاده الى تلك البلاد. وهذا فضلاً عن أن هتلر وموسوليني كانا يساعدان الوطنيين بينما وقفت الدول الديمقراطية بعيداً. أما روسيا فكانت حليفاً للجمهوريين، وهي الدولة الوحيدة الكبرى التي كانت تساندهم. وسألته أين يوجد الذهب الآن؟ فأجاب وزير المالية: في قرطاجة، في أحد الكهوف القديمة التي يستخدمها الاسطول لحزن الذخائر. وقلت في نفسي لقد ساعد الحظ ستالين مرة ثانية وقد أصبحت مشكلتي بسيطة جداً بوجود الشحنة في قرطاجة. فذلك الميناء الفسيح هو الذي تقوم سفننا السوفياتية بإنزال الأسلحة والذخائر فيه. وهكذا لا توجد فيه السفن فحسب بل الأشخاص السوفياتيون الذين نثق بهم أيضاً.

وكان لابد من الإفضاء بالسر الى مسؤول اسباني آخر هو «انداليشيو برتيو» وزير البحرية والطيران فإننا سنحتاج الى سفنه الحربية لحراسة الشحنة عبر البحر المتوسط الى أوديسا على البحر الأسود. وعندما استشير في ذلك «وافق على إصدار الأوامر اللازمة».

كانت السرعة ضرورية جداً لأن أية اشاعة كفيفة بجعل ايطاليا والمانيا تعترضان سفننا. والأكثر أهمية من ذلك أن أعصاب الشعب الاسباني كانت في حالة تكفل بإلغاء العملية بأسرها فيما لو تسرّب أي نبأ عن إرسال كنز الأمة الاسبانية الى الخارج...

وبناء على تعليمات «جوان نجران» قدم بي أحد كبار موظفي وزارة الخزانة (المالية) تفاصيل الذهب وتخزينه فقال: ان هناك حوالي عشرة آلاف صندوق حجم كل منها ٣٠ × ٤٨ × ١٨ سم يحوي كل منها على ٦٥

كيلوغراماً من الذهب ومجموعها حوالي ٧٢٥ طن.

وفي اليوم التالي ذهبت الى قرطاجة بالسيارة - يضيف الجنرال أورلوف - وكان ملحقنا البحري قد سبقني الى هناك وهو صديقي القديم «نيقولا كوزنتسوف» (الذي أصبح خلال الحرب العالمية الثانية وزيراً للبحرية السوفياتية) وأمرته أن يجند كل السفن السوفياتية التي تصل الى قرطاجة وأن يتم إفراغها بأقصى سرعة ويضعها تحت تصرفي . وكانت هناك سفينة شحن روسية في الميناء ومن المتوقع وصول سفن أخرى . كما أعطيت الأوامر الى القائد الاسباني فوضع تحت تصرفنا (٦٠) بحاراً . والتفت بعد ذلك الى مشكلة نقل الذهب من الكهف الى أرصفة الميناء . كان هناك لواء دبابات سوفياتي قد نزل في قرطاجة قبل اسبوعين للوقوف بجانب الجمهوريين ضد هجمات الجنرال فرانكو بعد أن وضعت للدبابات أرقام اسبانية . وهو يعسكر الآن في «أرتينا» على مسافة ٦٠ كيلو متراً يقوده الكولونيل «كوفوشين» الذي عرفه الاسبان باسم هيليه . وقد خصص كوفوشين لي ٢٠ سيارة نقل عسكرية من التي لديه ويقودها أفضل سائقي الدبابات السوفيات .

وأخيراً أصبح كل شيء على استعداد وكانت السيارات تقف في سكة الحديد في قرطاجة بقيادة الجنود السوفيات الذين ارتدوا ملابس الجنود الجمهوريين الاسبان . وأرسلنا البحارة الاسبان قبل ذلك بساعتين الى الكهف بينما كانت سفن سوفياتية بملاحيتها وحتى الطهاة في حالة تأهب توقعاً لعدة ليال من عمليات شحن هامة .

كان البحارة الاسبان الستون من بحارة الغواصات وأجسامهم نحيلة . وكان نقل كل صندوق الى السيارات يتطلب تعاون اثنين منهم ، ولتسهيل العد جعلنا حمولة كل سيارة (٥٠) صندوقاً فقط . وكنت أرسل كل عشر سيارات الى الميناء بعد أن يتم شحنها . فإذا عادت بعد ساعتين تكون السيارات العشر الأخرى قد استعدت للرحيل مع ٥٠٠ صندوق أخرى . وكنت أتقدم كل قافلة بسيارتي ومعني أحد ضباط المخابرات السوفياتية ومندوب من وزارة المالية

الاسبانية. واستمرت عملية الشحن ثلاث ليال من الساعة مساء وحتى الصباح. وكانت تلك الليالي حالكة الظلام لا قمر فيها وقد أظلمت الدنيا تماماً ولم يكن باستطاعتنا استخدام أنوار السيارات. وكان السائق لا يرى السيارة التي أمامه أحياناً فيتية عن الطريق ويختل الطابور. وقد ساورني الرعب - يضيف أورلوف - عدة مرات لهذا السبب. إذ أن رجال الدبابات الروس الذين يرتدون الزي العسكري الاسباني لم يكونوا يلمون بكلمة واحدة اسبانية. فماذا يحدث لو احتجزت أحدهم دورية عسكرية من البوليس الحربي الاسباني، واعتقدت أنهم (جواسيس)؟ ومن المعروف أن قضاء ومحاكمة الحرب يكونان من السرعة بحيث لا نستطيع تلافى أي تهوّر. بل ماذا لو فتشت (الشرطة العسكرية) إحدى هذه السيارات؟ إن نبأ رحيل بعض الأجانب بشحنات من الذهب سوف يشعل نيران أعمال عنف سياسية لا حصر لها. كما كان ثمة خطر يتمثل في حدوث غارة المانية. لقد كانت الكهوف ملأى بالمتفجرات وأية إصابة مباشرة يمكن أن تكون فيها نهايتها جميعاً أو ربما غرق سفننا في الميناء. وكان الحظ في ركابنا حتى الليلة الثالثة والأخيرة. حوالي الساعة الرابعة صباحاً راحت القاذفات الالمانية تمر من فوق سلسلة التلال المنخفضة وكان في استطاعتنا ونحن في الكهف أن نسمع صوت القنابل وهي تصيب أرصفة الميناء. وعلمت من أحد السائقين العائدين أن الألمان أصابوا سفينة شحن سوفياتية كانت تقف بالقرب من سفننا. وقررت أن أنهى العملية وأرسل سفني الى خارج الميناء بأسرع ما يمكن. وعندما أرسلت آخر سيارة في تلك الليلة سألت موظف المالية المشرف على العملية عن رقمه الأخير فقال: لقد نقلنا حتى الآن ٧٨٠٠ صندوق أي ثلاثة أرباع الذهب. وفي العاشرة من صباح ٢٥ أكتوبر وضع آخر صندوق على ظهر آخر سفينة وحلت اللحظة الحرجة التي لا مناص منها عندما طالبني الموظف الاسباني بإيصال عما استلمته، فتحاشيت عيني الموظف الحمرابين وحاولت أن أبدو غير مكترث وقلت ببرود: «ايصال؟ ولكني أيها الرفيق لست مفوضاً لإعطاء ايصال. لا تقلق يا صديقي فسوف يصدر الإيصال من بنك الدولة في

الاتحاد السوفياتي عندما يتم استلام ووزن وفحص كل شيء هناك في موسكو.

وفغر الرجل فاهه دهشة وقد أصابه الذهول. ولم يستطع أن ينطق إلا بكلمات مبهمة غير متماسكة، أي أنه لم يفهم جوابي. فالأمر قد يعني حياته في هذه الأحوال. وشعرت أنه يود الاتصال بمديرد. ولكني لم أرد قطعاً أن أجعله ينشر الذعر بواسطة الحديث التلفوني. فاقترحت عليه أن يرسل عوضاً عن الإتصال مندوباً عن وزارته في كل سفينة كمرافقين رسميين للذهب. ولم يكن هذا التساهل يعني شيئاً في ضوء هذا المنطق البارد. ولكن الرجل الشارد اللب وافق عليه. وبعد ساعتين أقلمت السفينة. واستطعت أن أبعث تقريراً الى موسكو بأن الشحنة الثمينة في طريقها الى أوديسا. كما استطعت في النهاية أن أعرف النهاية السوفياتية للعملية وذلك من كبار موظفي المخابرات الذين كانوا يروحون ويجيئون بين روسيا واسبانيا. وقد تقاطر على أوديسا عدد كبير من كبار ضباط المخابرات السوفياتية من موسكو وكيف. وظلوا هناك عدة أيام يشرفون على تفريغ الذهب ومن ثم حمله الى قطار خاص. وقد أحيطت مساحة كبيرة من الميناء حتى خطوط السكك الحديدية بقوات خاصة. وعندما رحل القطار الى موسكو صحبه المئات من الضباط المسلحين. وأقام ستالين مأدبة فاخرة لكبار ضباط مخابراته احتفالاً بهذه الضربة وذلك في الليلة التالية لوصول الذهب الى موسكو. وكان جميع أعضاء المكتب السياسي للحزب الشيوعي حاضرين، بينما ظهر ستالين في حالة معنوية عالية. وقد ذكر أريجوف مدير المخابرات السوفياتية لأحد أصدقائي: «إن الاسبان لن يروا ذهبهم مرة أخرى إلا بعد أن يروا آذانهم». وفي خلال الواحد والعشرين شهراً التي مضت على عملية الذهب وفراري من الاتحاد السوفياتي الى أميركا كنت على صلة مستمرة بالزعماء الجمهوريين الاسبانيين. ولكن الأمر ظل سراً مؤلماً بيننا لا يتحدث عنه أحد. وكنت واثقاً أن عملهم بدأ يبدو أمامهم باعتباره غلطة كبرى. وكانت المرة الوحيدة التي ذكرت فيها هذه المسألة في خلال حديث مع «نجران» وزير الخزانة كان قد

أصبح رئيساً للوزراء فقد سألني : أتذكر هؤلاء الأربعة الذين وضعوا على سفنكم؟ إنهم ما زالوا في روسيا بالرغم من أكثر من عام... إني أتساءل لماذا لا يسمح لهؤلاء المساكين بالعودة الى وطنهم؟ وقد اكتشفت فيما بعد أن هؤلاء الأربعة لن يسمح لهم بالعودة إلا بعد انتهاء الحرب الأهلية. ولا بد أن الجنرال فرانكو قد علم بنبأ الذهب (الضائع) بمجرد استيلائه على مدريد. ولكن حكومته لم تذكر شيئاً عنه لمدة ١٨ عاماً تقريباً. فالعملة الاسبانية ضعيفة فعلاً وسوف تنهار بكل تأكيد اذا عرف أن الخزائن الوطنية خالية تماماً. وقد تحطم الصمت الرسمي في ديسمبر ١٩٥٦ بعد موت الدكتور «جوان نجران» فقد أكدت وزارة الخارجية الاسبانية أنها وجدت أخيراً بين أوراقه الخاصة إيصالاً رسمياً عن ذهب مودع لدى الاتحاد السوفياتي.

وبعد بضعة أشهر اعترف مقال نشر في صحيفة (برافدا) بعبارات ساخرة بأن حوالي (٥٠٠) طن من الذهب الاسباني وصلت فعلاً الى موسكو عام ١٩٣٦ وأن الحكومة السوفياتية قدمت إيصالاً عنها. ومضت الصحيفة تقول: إن هذا الذهب كان لضمان سداد قيمة الطائرات والأسلحة والذخيرة وغيرها من السلع السوفياتية التي قدمت للجمهوريين في اسبانيا... (انتهى كلام أورلوف).

يبدو من خلال ذلك أن الجنرال أورلوف الهارب الى الولايات المتحدة تعاون مع المخابرات الأميركية في صياغة أحاديثه الخاصة بهذه المسألة فأتت مشوهة ومسدوسة في كثير من الأحيان بشكل يخدم المصالح الأميركية وأهدافها، خاصة بعد انتصار الجنرال فرانكو الفاشي. وهكذا تحول الذهب الاسباني في موسكو الى سلاح فعال في يد حركات التحرر الوطني في المستعمرات وأشباه المستعمرات، تلك الخاضعة للسيطرة الاسبانية وغيرها من أجل الوصول الى الحرية والاستقلال. أما المساعدات التي يقدمها الاتحاد السوفياتي الى الشعوب المناضلة لا تعادل في قيمتها ذهب اسبانيا المنهوب من مختلف بقاع الأرض التي أخضعها فحسب بل تساوي كل كنوز العالم قاطبة وذلك لأن الحرية هي أغلى شيء على الإطلاق.

لينين ومؤامرة السفراء الثلاثة

قليلون جداً في التاريخ، أولئك الذين ارتبط اسمهم ونضالهم وشخصيتهم بتاريخ شعوبهم وأوطانهم... وقليلون جداً أيضاً أولئك الذين تجاوز اسمهم وتاريخهم حدود بلادهم الأم، ليصبحوا رمزاً لنضال الشعوب في سبيل حريتها واستقلالها. ويعتبر «فلاديمير ايليتش لينين» مؤسس الحزب الشيوعي السوفياتي وأول دولة اشتراكية في العالم، من أكبر الرموز الثورية في القرن العشرين... وانطلاقاً من وزنه الثوري، وأهميته الدولية وتأثيره «السحري» في حركات التحرر الوطني في المستعمرات وأشباه المستعمرات، استبسلت الدول الغربية، وتفننت في ابتكار الطرق والأساليب الآيلة إلى تصفية «لينين» جسدياً. ولم تكن المؤامرة المعروفة بمؤامرة «السفراء الثلاثة»، إلا النموذج الحي على مثل هذا النشاط الامبريالي الغربي...

فمن هم هؤلاء «السفراء الثلاثة»؟ وما هي أسرار مؤامرتهم هذه؟.

فور انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا عام ١٩١٧، شنت الامبريالية الدولية حرباً علنية وسرية ضارية ضد الجمهورية السوفياتية واستعملت كافة الطرق والأساليب في هاتين الحربين بما في ذلك التدخل المسلح وتأييد ومناصرة الثورة المضادة في الداخل، وتنظيم وحياكة المؤامرات وعمليات القتل والاغتيال والتخريب، واختلاق الأكاذيب الخسنة الحائقة... وانقضت العقود والعهود، لكن الطرق والأساليب التي تلجأ إليها الامبريالية في مناوأة الاشتراكية، وحركة التحرر الوطني، لم تتغير. وكانت مؤامرة «السفراء الثلاثة» واحدة من مشاهد النشاط التخريبي الهدام قامت به أجهزة المخابرات التابعة للبلدان الغربية ضد الدولة السوفياتية إبان سنوات الحرب الأهلية في

أعوام ١٩١٨ - ١٩٢٠ ..

في أحد أيام شهر آب / أغسطس سنة ١٩١٨ ، شوهد رجلان يتجاذبان أطراف حديث جذاب في شارع «تسفيتنوي بولفار» بموسكو. وكان أحد الرجلين أصفر الشعر، له عينان رماديتان ممشوق القامة، يرتدي الزي العسكري، هو «ادوارد بيرزين» قائد إحدى وحدات الجيش السوفياتي. أما الرجل الثاني فقد كان بديناً يرتدي الزي المدني، هو الملازم «سيدني ريلي» عميل المخابرات الانجليزية ..

وكان «ريلي» يتحدث أساساً بينما كان الآخر يستمع. وانهمك يشرح له مخططات إلقاء القبض على قادة الحزب البلشفي (الحزب الشيوعي فيما بعد) والدولة السوفياتية أثناء عقد جلسة مجلس مفوضي الشعب (مجلس الوزراء) وحيث أن العميل الانجليزي كان يعرف أن «بيرزين» يضطلع بقيادة الوحدة المكلفة بحراسة الكرملين، فقد عرض عليه أن يقوم باعتقال جميع أعضاء الحكومة أثناء انعقاد الجلسة. وافترض المخطط أنه سيتم اغتيال «لينين» في الحال. واستطرد «ريلي» في شرح المخطط، فقال أنه سيكون من الضروري بعد ذلك الاستيلاء على بنك الدولة والمقر الرئيسي للتلغراف وسترال التليفونات ..

وفي نهاية الحديث انتقل مظروف ثقيل به ٧٠٠ ألف روبل من يد رجل المخابرات الانجليزي الى يد «بيرزين».

بعد ذلك التقى «بيرزين» «بريلي» وحصل منه على أدق تفاصيل التعليمات الخاصة بهذه العملية علاوة على نصف مليون روبل سوفياتي. وفي أواخر آب / أغسطس سافر «بيرزين» بناء على مهمة كلفه بها «ريلي» الى بتروغراد (لينينغراد) حيث كان عليه أن يقوم بتنسيق أعماله وخطواته مع مجموعة المتآمرين الموجودين هناك. ولم يدر بخلد الجاسوس اطلاقاً، ولم يتطرق الى نفسه الشك أبداً، ان «بيرزين» ينفذ مهمة أجهزة اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب لعموم روسيا، والمعروفة بـ «لجنة الأمن الاستثنائية» ..

كانت تلك الأحداث تجري في وقت عصيب مشوب بالقلق. اذ كانت حلقة نيران الجبهات تضيق حثيثاً حول الجمهورية السوفياتية. وحشدت الجمهورية الفتية كل قواها واستجمعتها من أجل الصمود، وصد هجوم المتدخلين، وجيوش الحرس الأبيض. وكان الخطر الأكبر متمثلاً في الانتفاضات المسلحة والنشاط السري من جانب منظمات الثورة المضادة الغفيرة العدد. وكان العبء الأساسي في التصدي لها ومكافحتها واقعاً على كاهل «لجنة الأمن الاستثنائية». وكان يترأس هذه اللجنة «فليكس دزيرجينسكي»، رفيق كفاح لينين والبلشفي الصعب المراس والقوي الشكيمة، والذي كان يتميز بنقاء وصفاء الروح والبصيرة. وهو الذي يعتبر من كبار أوائل المؤسسين لجهاز المخابرات السوفياتي، الذي يتمتع بتفوق كبير على مختلف أجهزة الاستخبارات في العالم..

وفي سنوات الحرب الأهلية (١٩١٨ - ١٩٢٠) كشفت اللجنة عن عشرات المؤامرات التي حاكتها الثورة المضادة. وكان سر نجاحها في نشاطها هو الصلة الوثيقة بأفراد الشعب من العمال والفلاحين والكادحين الذين قاموا بدورهم على أكمل وجه بتقديم كافة أشكال العون الى رجال «لجنة الأمن الاستثنائية»...

ففي شهر يونيو من عام ١٩١٨، تلقت «اللجنة الاستثنائية للأمن» معلومات تفيد أن الممثلين الدبلوماسيين لكل من الولايات المتحدة الاميركية وانجلترا وفرنسا، يمارسون نشاطاً لا يتناسب ولا يتماشى مع وضعهم الرسمي. فقد كان هؤلاء يضعون ويحيكون مخططات الأعمال.. التخريبية الهدامة للإطاحة بالحكومة السوفياتية. ولهذا فهم يقيمون الصلات بعناصر الثورة المضادة ويجندون المواطنين السوفيات للقيام بأعمال التجسس والتخريب. وقررت «اللجنة الاستثنائية للأمن» أن تتوغل في معسكر الدبلوماسيين المتآمرين والوقوف على كنه مخططهم ثم تنفيذهم وكشفهم

وفضحهم. وسافر اثنان من الشبان العاملين «باللجنة الاستثنائية للأمن» الى بتروغراد، وهما «يان بويكيس» و«يان سبروجيس» بإسمين مستعارين، حيث كانت بها طائفة من سفارات الدول الغربية. واستطاعا أن يكتسبا ثقة رجال الثورة المضادة الذين سرعان ما عرفوهما بالملحق البحري لانجلترا، وكان اسمه «كرومي». وفي منتصف أغسطس قدم «بويكيس» و«بيرزين»، وكانت اللجنة الاستثنائية قد قررت اشراك الأخير في العملية الرامية الى كشف القناع عن المتآمرين، الى الشقة الخاصة للمستتر «لوكهارت» رئيس البعثة البريطانية في موسكو. وكان معهما خطاب من «كرومي». وصدق «لوكهارت» الرجلين الوافدين، وأصدر تعليماته الى العميل «ريللي» بالاتصال بهما..

وأخذت تفاصيل المؤامرة تتضح تدريجياً. وكانت خيوطها الممتدة بين كثير من المدن وجيوش الثورة المضادة تؤدي كلها الى هيئات التمثيل الدبلوماسي لكل من الولايات المتحدة الاميركية وانجلترا وفرنسا، والتي كانت تعمل فيما بينها على نحو منسق. وهذا هو السبب في أن هذه المؤامرة عرفت في التاريخ باسم مؤامرة (السفراء الثلاثة). وفي الثلاثين من أغسطس ١٩١٨ وقع حدث مأساوي. فقد وقعت محاولة آثمة للإعتداء على حياة «فلاديمير لينين» أصيب فيها بجرح بالغ. ومع أن الكثير من جوانب المؤامرة لم يكن قد اتضح بعد، إلا أن الحكومة السوفياتية أصدرت تعليماتها الى «اللجنة الاستثنائية للأمن» للقضاء على المؤامرة هذه. وكان الأمر يتطلب اتخاذ تدابير حيوية فعالة فوراً ضد ممثلي البلدان الامبريالية الموجودة فعلياً في حالة حرب ضد روسيا السوفياتية، ذلك أن القوات الاميركية والانجليزية والفرنسية قد وطئت الأرض السوفياتية وعاثت فيها فساداً...

والجدير بالذكر، أن الشابة الاشتراكية الثورية «دورا كابلان»، هي التي أطلقت الرصاص على لينين حين كان يغادر مصنعاً في موسكو. وقد اخترقت إحدى رصاصات كابلان رئة لينين، واستقرت الثانية في رقبته. وبرغم أنه لم يَلَقَ حتفه إلا أن فرص بقائه على قيد الحياة كانت ضئيلة (استعاد لينين

قدراته ، لكن عافيته لم تعد ومات في العام (١٩٢٤).

وفي مساء الحادي والثلاثين من آب / أغسطس اعتقل رجال لجنة الأمن بعض موظفي الأجهزة الدبلوماسية الانجليزية والفرنسية في موسكو. وتم اعتقال «لوكهارت» من بينهم. وأثناء الحديث معه طلب منه «بيترس» نائب رئيس «اللجنة الاستثنائية للأمن» أن يفسر محاولة رشوة وتجنيد «بيرزين» قائد إحدى الوحدات العسكرية السوفياتية. وعرض على الدبلوماسي الانكليزي بطاقة تحقيق الشخصية التي وقعها شخصياً وأعطاه «ليرزين» وكانت هذه البطاقة تتضمن رجاء الى كافة السلطات العسكرية الانجليزية بتقديم عونها ومساعدتها الى «عميله». غير أن «لوكهارت» رفض الاعتراف بأي شيء مستنداً في ذلك الى وضعه الدبلوماسي. وبعد عدة ساعات تم الإفراج عنه بناء على أوامر الحكومة السوفياتية...

وعلى الرغم من التدابير التي اتخذت، تمكن العملاء الأجانب من الاختفاء مع أنهم كانوا معروفين لدى «لجنة الأمن الاستثنائية»، وهم على وجه التحديد «ريللي» الموظف بالمخابرات الانجليزية، و«فيرتيمنون» موظف المخابرات الفرنسية و«كالاماتيانو» موظف المخابرات الاميركية. وألقى رجال «لجنة الأمن الاستثنائية» القبض على عدة عملاء كانوا قد جندوا بمعرفة الثلاثة الفارين. فقد اعترف «فريدي» الذي قبض عليه متلبساً بجريمته بأنه يعمل في خدمة رجل المخابرات الاميركية «كالاماتيانو»، وأنه كلفه بجمع المعلومات عن الوضع الاقتصادي والسياسي والعسكري للجمهورية السوفياتية... وأثارت الحكومتان الانجليزية والفرنسية والبرجوازية الغربية عاصفة هوجاء من «الاحتجاج» في تلك الأيام. وألقي القبض على «ليفتينوف» ممثل روسيا السوفياتية في لندن وموظفيه من قبيل الانتقام. وألقت الحكومة السوفياتية القبض من جديد على «لوكهارت» في موسكو. وفي السابع من سبتمبر عام ١٩١٨ أعلن مفوض الشعب للشؤون الخارجية «تشيتشيرين» أمام الأجانب «أن الممثلين الدبلوماسيين والعسكريين لانكلترا وفرنسا يستغلون وضعهم في

تنظيم وحياكة المؤامرات في أراضي روسيا السوفياتية بهدف إلقاء القبض على أعضاء مجلس مفوضي الشعب عن طريق الرشوة والدعوة بين الوحدات العسكرية، وبهدف نسف الجسور ومخازن ومستودعات المواد الغذائية والقطارات. وتفيد المعلومات بما لا يدع مجالاً للشك أن خيوط المؤامرة تلتقي كلها في أيدي «لوكهات» رئيس البعثة الانجليزية، وعملائه.. ولقد اتضحت بالفعل حقيقة أن مبنى السفارة الانجليزية في بتروغراد قد تحول فعلاً الى شقة سرية للمتآمرين. ولذا فإن حكومة الجمهورية السوفياتية تجد نفسها مضطرة الى تهئية ظروف لهؤلاء الأشخاص المتورطين في المؤامرات يستحيل معها استمرارهم في ممارسة نشاطهم الأثم من وجهة نظر القانون الدولي»..

ومن الجدير بالذكر أن بعض الدبلوماسيين المتآمرين قد اختفوا في مبنى السفارة النروجية ومن بينهم القنصل العام الفرنسي «جرينار» والجنرال «لافيرن». وذات مرة ألقى أحد موظفي لجنة الأمن الاستثنائية القبض على شخص حاول دخول السفارة واتضح بعد الوقوف على شخصيته أنه العميل الاميركي «كالاماتيانو» الذي كان مطلوب القبض عليه وعثروا لديه على كمية هائلة من «الشفيرات» والمعلومات السرية عن الوضع العسكري والاقتصادي للبلاد السوفياتية. وكان «كالاماتيانو» يقوم بنشاط تجسسي كبير، ذلك أنه كان يعمل في الوقت نفسه مع رجال المخابرات الحليفة مثل «ريلبي» و«فيريتمون» تحت ستار الشركات التجارية الاميركية مع تزوير الوثائق والمستندات اذا ما تطلبت الضرورة ذلك.. واتضح أن كثيرين من الجنرالات والضباط والموظفين السابقين الروس كانوا قد وقعوا في شباكه. وتمكنت «لجنة الأمن الاستثنائية» من إلقاء القبض عليهم جميعاً..

وبعد ذلك بفترة قصيرة تم التوصل الى اتفاق بإطلاق سراح الدبلوماسي السوفياتي «ليتفينوف» وموظفيه. وتم كذلك طرد جميع الجواسيس الدبلوماسيين من أراضي البلاد السوفياتية. وكانت تلك هي نهاية واحدة من أولى محاولات البلدان الغربية للقيام بعمل تخريبي سري ضد الجمهورية السوفياتية..

وليس من المبالغة في القول أن عظمة لينين هي ذاتها عظمة ثورة أكتوبر أول ثورة اشتراكية متتصرة في التاريخ. اذ أن هؤلاء الامبرياليين كانوا يدركون جيداً أن القضاء على لينين ورفاقه في مجلس مفوضي الشعب، هو قضاء على هذه الثورة العملاقة. ولهذا لم يتأخروا في هذا العمل، لكنهم لم يحصدوا سوى الخيبة والفشل.

المراجع

- ١ - ستيفانوف «المجلة العسكرية السوفياتية» العدد العاشر. شهر أكتوبر
- ٢ - مجلة «الجيل» (القبرصية). العدد الثاني. المجلد العاشر. فبراير ١٩٨٩. ص ٩٥ - ١٠٢ (بقلم فيليب نايتلي، وعرض سعد محيو).

فتى الأبطال بين براءة الطفولة وكرامة الوطن

حروب التاريخ غول لا يشبع، والويل لمن اكتوى بنار حرب لا تعرف الرحمة والشفقة، ولا تفرق بين الطفل والشيخ والنساء والشباب، كما بين المدارس والمنازل والمستشفيات وأماكن العبادة وبين المواقع العسكرية. وهل هناك أشرس من الحرب العالمية الثانية التي أشعل نارها هتلر النازي من أجل السيطرة على العالم؟.

لكن مثل هذه الحروب سرعان ما ترفع الأطفال والفتيان - بسبب بطولانهم - الى مصاف العظماء والأبطال، كما هو حال الرائد الفتى الصغير «ليونيد جوليكوف» الذي استحق لقب «بطل الاتحاد السوفياتي» وهو في سن الرابعة عشرة.

كيف كان ذلك؟ وما هي أسرار هذه البطولة؟.

كانت الحرب الوطنية العظمى دائرة؛ وفي المؤخرة البعيدة، وفي الجبهة كان الأولاد يساعدون الوطن - قدر المستطاع - في الكفاح ضد الأعداء النازيين الفاشيين. كما كانوا يفكرون في شيء واحد وهو أن البلاد في خطر، ويجب العمل والدراسة والكفاح بصورة أفضل. وهكذا كان!!.

كان بين أمثال هؤلاء الأولاد الرائد الفتى «ليونيد جوليكوف».

كان ليونيد يتعلم في الشتاء، ويساعد أمه في الصيف بعد أن توفي والده إثر مرض الروماتيزم تاركاً له وصية هامة: «يجب عليك مساعدة الأسرة

يا ليونيد». وقد كان وفياً بالفعل لأسرته ووطنه خير وفاء.

عاش «ليونيد جوليكوف» مرارة التشريد عن قريته التي هرب أهلها بعد دخول الجيش الهتلري إليها، ولم يكن ليونيد يتصور مرة ظهور الالمان في قريته.

وعندما سأله رفيقه الصغير «فالكا»: - واذا قدموا، ماذا ستفعل؟ أجاب ليونيد بدون تحديد: - سأفعل شيئاً ما.

وفجأة ظهر أن «فالكا» الصغير كان على حق: فقد أخذت القوات النازية تقترب أكثر وأكثر بعد أن استولت على «ستارايأ روسا»، وظهرت على شاطئ نهر لوفات. ومن يوم إلى آخر كانوا يستطيعون الاستيلاء على لوكينو وهي قرية ليونيد على نهر بولا.

وأصبحت القرية شبيهة بالخلية المضطربة. كانوا يحفرون في البساتين الحفر التي خبثت فيها الأشياء بعيداً عن الهتلريين. وبعد ذلك هجرت القرية كلها الى الغابة.

وفي أحد الأيام قرر ليونيد قطع وقت الفراغ والذهاب الى قرية لوكينو للنظر الى منزلهم، ولمعرفة هل يوجد الالمان في القرية؟.

وقد وُفق ليونيد في الوصول الى النهر بعد عملية تسلل يقظة، وجلس ينتصت لأقل خرخشة. وأطل من وراء الراية حيث شاهد فجأة عدداً من الجنود، عرفهم سريعاً أنهم ليسوا من الروس، لكنهم ألمان.

ركض مقترباً من السدود عند النهر، وسرعان ما شاهد رجلاً يرقد في حفرة ليست عميقة، يطلق الرصاص من رشاشه على الجنود الالمان. وكان رامي الرشاش يزحف من مكان الى آخر معطياً دفعات من الرصاص ثم يزحف أبعد، ثم من جديد يفتح النيران. لقد كان يتماكر لكي يعتقد الالمان أن عدداً من الرماة عند النهر وليس رام واحد...

ولكن الرشاش صمت لمدة غير طويلة، فصاح ليونيد مبتهجاً: انك

ضربتهم بمهارة! فارتعش رامي الرشاش الذي كان مشغولاً بالمعركة والتفت بعنف الى ليونيد.

- ماذا يلزمك؟ - صرخ بغضب وهو يشاهد أمامه ولدأ - ماذا يلزمك هنا؟.

- انني من هنا - أجب ليونيد - لقد أردت مشاهدة قريتي .

- وما اسمك؟.

- ليونيد .

فقال رامي الرشاش: حينئذ هالك يا ليونيد، سوف أبتعد الآن وأريد أن أعهد اليك بشيء... لقد قتل الفاشيون رفيقاً لي، وها هو يرقد بين تلك الشجيرات. وقد كان اسمه «أوليغ». آه وأي شاب كان هواً فلتدفن أوليغ، احفر قبراً وادفنه لكي لا ينتهكوه.

قتل رامي الرشاش، فدفنه الأولاد تحت شجيرات الصنوبر، ونثروا فوقه الأعشاب، فقال «فالكا»: لنأخذ الرشاش لأنفسنا.

- بالطبع، وإلا سيحصل عليه الجنود الفاشيون... سنصنع مخبأ ونخبه.

وهكذا حمل الأولاد على أكتافهم الرشاش اليدوي واختفوا في ظلام الغابة. وفي صباح مبكر غائم اتجه الأولاد لصنع المخبأ. وقد كانوا يصنعونه حسب كل القواعد. فقد فرشوا قماشاً من الألياف وألقوا عليه بالتربة المستخرجة من الحفرة لكي لا تبقى دلائل في أي مكان ويكون بذلك مخبأ جيداً. وحين أخفيت جميع الدلائل ونمت على مكان المخبأ عرمة كبيرة من أغصان الشجر، قال ليونيد: - والآن يجب أن لا يباح لأحد ولا بكلمة واحدة، كالسر الحربي! واقترح «سيريوجا»: يجب حلف اليمين.

- ولماذا؟ - لكي يكون أكثر إيماناً.

- دعنا فقط نعطي كلمة شرف الرواد، وهذا يكفي. أو نراجع من جديد الوعد الاحتفالي للرواد وسيكون أكثر قوة.

وأيدّه ليونيد: - هذا صحيح يا أولاد. فلنعد مرة أخرى الوعد جميعاً.

ورفع الأولاد أيديهم في سلام ابتهاجي وأعادوا جميعاً كلمات قسم الرواد: «انني رائد فتى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية. انني أعد بمهابة أمام وجه رفاقي بأنني سأناضل في صلابة من أجل قضية الاشتراكية ومن أجل انتصارها. وأعد بأنني سأعيش وأتعلم حتى أصبح مواطناً لوطني الاشتراكي عن جدارة».

ودوت كلمات الوعد الاحتفالي بطريقة مؤثرة على وجه الخصوص في تلك الغابة النائية بالقرب من السلاح المدفون في الأرض والذي أعده الرواد لمكافحة العدو. وبعد بضعة أيام قابل ليونيد معلمه في المدرسة «فاسيلي جريجور يفتش» الذي كان يحب ليونيد كثيراً. وتعجب المعلم بعد أن شاهد الولد وقال:

- ليونيد... جوليكوف! أي أقدار ألفت بك؟ اذ يقولون أن الالمان قد طردوكم من القرية. وأين تعيش؟ فلنذهب وأوصلني وتكلم لي عن كل شيء في الطريق.

- وأنت أين يا فاسيلي جريجور يفتش؟ سأله ليونيد؟

- قال المدرس: أنا مع الفدائيين.

وقدما الى البيوت الرابضة في طرف القرية حيث كان يربط فريق من الفدائيين، للراحة. قسم ينظف الرشاشات، وآخرون يتناولون الطعام. أما ليونيد فلم يكن يستطيع أن يتصور سعادته في هذه اللحظة، وكم كان يحلم بمقابلة مع الفدائيين وها هو. كان يحذق بفضول حوله. آه لوبقي هنا! ومن الواضح أنهم ناس أبطال، أو باختصار: فدائيون.

وسألوا فاسيلي جريجور يفتش عند وصوله : - هل جندت فدائياً جديداً؟
وقد تلقى ليونيد في البداية هذه الكلمات باستهزاء، ثم سأل معلمه :

- فاسيلي ! هل من الممكن أن أبقى مع الفدائيين؟ .

فقال المدرس متعجباً : - أنت؟ انني لا أعرف . فكم عمرك؟ .

وكذب ليونيد واحمر وجهه خجلاً : - خمسة عشر .

ونصح الفدائي ذو الشارب، فاسيلي قائلاً : خذ نفسك يا فاسيلي في الاستطلاع، فالولد يبدو حركاً . . .

- أجاب فاسيلي : حقاً . انه من الممكن أخذه . فقد كان قائداً في المدرسة .

ومنذ ذلك اليوم أصبح الرائد «ليونيد جوليكوف» مسجلاً في فرقة الفدائيين .

وبعد أسبوع ابتعدت الفرقة من مكانها وتوغلت في الغابة لكي تنفذ عبر خط الجبهة الى المؤخرة للألمان . وقد ساروا بضعة ليال عبر مستنقعات وغابات وعرة، وقد تحمل ليونيد بصلاصة مشقات الفدائيين من برد قارس وليالي الأرق والمسيرات الطويلة .

وسرعان ما ظهر في فريق الفدائيين ولد آخر يدعى «ميتيايكا» . وصادق ليونيد بسرعة رفيقه الرائد الصغير، وقد كانا ينمان حتى على أرضية خشب واحدة معدة للنوم . وذات مرة دخل أحد الفدائيين الى المخبأ وقال للولدين : - ها يا نسران ان القائد يستدعيكما وعنده مهمة لكما .

ومنذ ذلك اليوم كان يذهب ليونيد وميتيايكا للإستكشاف، وكانا يستطلعان موقع حاميات الأعداء ونقاط نيرانهم وأين توجد المخابىء . وقد أصبح عند ليونيد الآن رشاش حقيقي . تحتم عليه غير مرة مشاهدة الأعداء عن قرب جداً، لكنه مع ذلك لم يجبن ولم يخف .

هذا ولقد ابتدع الولدان وسيلة للاستطلاع . فقد كانا يرتديان ثياباً رثة
ويأخذان شنطة ويجوبان القرى في مظهر الشحاذين يطلبان معونة . أما هما
فقد كانا يتطلعان بأعينهم ويلاحظان كل شيء : كم عدد الجنود هناك ؟ وأي
سلاح هو سلاحهم ؟ كم عدد الرشاشات والمدافع ؟ .. الخ ..
انها مهمة صعبة بالفعل لكنها ليست مستحيلة .

وذات مرة تمكن ليونيد ورفيقه ميتاياكا من النفاذ الى مطعم للضباط
الالمان . وبعد أن تناولوا الغداء كتب ليونيد مذكرة وتركها على المائدة قال
فيها : «الموت للمحتلين الالمان ! لقد كان يتناول الغداء هنا الفدائي
جولييكوف . فاهلعوا يا أوباش !» .

وحينما اكتشف الهتلريون المذكرة كان الفدائيان الصغيران قد ابتعدا .
وكان أحياناً ما يترك ليونيد مع الفدائيين الآخرين الفرقة لبضعة أيام ، كانوا
يستطلعون المسالك للطرق الحديدية وكانوا يصاحبون زارعي الألغام
 ويفجرون السدود بأنفسهم .

وصادف أثناء إحدى عمليات الاستطلاع ، أن جرح رفيق ليونيد ،
ويدعى «ستيان» . ولم يرض ليونيد أن يترك رفيقه ينزف بعيداً عن مقر
الفدائيين ، وإنما عمل على حمله مسافة طويلة نال على أثرها تهنئة قيادته .
وفي الصباح قدم قائد الفريق الشكر لليونيد أمام الطابور وقال أن الفدائي
الاستكشافي ليونيد جولييكوف سوف يقدم لمكافأة حكومية مقابل انقاذه
لرفيقه .

وقد حدثت أحداث هامة بعد بضعة أيام : فقد قبل ليونيد في اتحاد
الشبيبة اللينيني وتسلم مكافأته الأولى وهي ميدالية «لمآثره الحربية» .

ولكن في يوم ١٣ آب / أغسطس من سنة ١٩٤٤ حدث شيء عجيب .

ذهب الفدائيون في ذلك اليوم للاستطلاع في الطريق الممهد . وبعد أن
أنجزوا المهمة قرر القائد العودة الى الكتيبة وأعطى إشارة لذلك . وقد نهض

ليونيد أيضاً، ولكنه شاهد في تلك اللحظة من على بعد عربة ركاب المانية. فرقد ليونيد وراء كومة حطب وأعدّ قنبلة وأخذ ينتظر. اقتربت العربة وفلرملت عند السد، فألقى ليونيد بالقنبلة على العربة التي أصابت مخفّفها ودوى انفجار كبير دفع العربة واهتزت وجرت عشرة أمتار أخرى بسبب قوة الاستمرار. وشاهد ليونيد كيف خرج من العربة الماني بلباس عسكري وأمسك بمسدس أوتوماتيكي وحقيبة حمراء، واندفع جانباً عن الطريق. وقد لاحظ الضابط الهتلري أن أحداً ما قد خرج جارياً من وراء كومة الحطب ووقع بجانب العربة بعد قفزتين. ثم شاهد الالماني أن ولدأ ما يتبعه من خلفه. حينئذ أعطى بضع عبارات فرقد ليونيد واستمر في الرمي راقداً. أما الهتلري فقد جرى من جديد فازدادت المسافة بينهما.

طارد ليونيد كيلو متراً كاملاً العدو الراكض، فألقى الالماني سترته البيضاء وبقي في القميص الغامق، ولذلك أصبح التسديد إليه أصعب. ولم يبق في حوزة ليونيد إلا رصاصة واحدة في رشاشه. وجرى الضابط الهتلري مستمراً في إطلاق النار. فسدد ليونيد جيداً وأطلق رصاصته الأخيرة، وسرعان ما خطا عدوه عدة خطوات مترنحاً ثم سقط على الأرض.

أسرع ليونيد الى القتل وأخذ الحقيبة والرشاش وذهب الى الخلف وهو يتنفس بصعوبة. وقد التقط في الطريق السترة البيضاء وشاهد عليها كتابتين مبرومتين لجنرال فقال بصوت مسموع: - يا له من غنيمة جيدة!

ظهر ليونيد في معسكر الفدائيين في بدلة رسمية بيضاء لجنرال ومعه حقيبة حمراء تحت إبطه. . . كان مظهره مضحكاً لدرجة أنه دوى في المعسكر ضحك مرتفع. أما ليونيد فقد أخذ يقدم تقريره بعد أن اتخذ وجهاً حاداً:

- لقد وصل الاستطلاعي الفدائي ليونيد جوليكوف من المهمة.

أوصل فاسيلي جريجور يفتش الى أركان الفرقة حقية وثائق الجنرال. وارتفعت ضوضاء في الأركان واستدعوا بسرعة عامل اللاسلكي.

وقال فاسيلي جريجور يفتش حين عاد من الأركان: ها يا ليونيد انك لماهر. ان وثائق مثل هذه يستطيع الحصول عليها حتى المستكشف المحنك مرة في كل مائة سنة. وسيخبرون موسكو الآن عنها. فأبي وثائق عظيمة وثائقك؟.

وسرعان ما وضلت من موسكو برقية لاسلكية: فقد اقترحوا على المشتركين في عملية الاستيلاء على الوثائق الالمانية الهامة مكافأة عليا، ولم يكونوا يعرفون في موسكو بعد أن كل الوثائق قد استولى عليها فدائي واحد وعمره ١٤ عاماً فقط.

وهكذا أصبح الرائد الفتى ليونيد جوليكونوف بطلاً للإتحاد السوفياتي. ولكن ليونيد لم يقدر أن يعرف عن مكافأته لأنه استشهد في قتال غير متكافئ في ضواحي قرية «أوستريا لوكا» يوم الرابع والعشرين من شهر كانون الثاني يناير سنة ١٩٤٤.

لم تعرف والدته ليونيد «يكاترينا اليكسينا» لمدة طويلة عن مصير ابنها. ولكن، وصل ذات يوم الى قرية لوكينو ساع في بزة عسكرية وقد وجد «يكاترينا اليكسينا» وسلم اليها ربطة كبيرة ذات أختام مشمعة. وكان في هذه الربطة وثيقة الجزء في تغليفة جلدية بلون التوت، مكتوباً فيها:

«الى بطل الاتحاد السوفياتي ليونيد الكسندروفيتش جوليكونوف.

مقابل مآثرتك البطولية في الكفاح ضد المحتلين الفاشيين الالمان في مؤخرة العدو، ومقابل خدماتك الخاصة في تنظيم الحركة الفدائية في منطقة لينينغراد قررت هيئة رئاسة المجلس الأعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية بتاريخ ٢ ابريل ١٩٤٤ منحك لقب بطل الاتحاد السوفياتي.

الامضاء: رئيس هيئة رئاسة المجلس الأعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية «كالينين».

سكرتير هيئة رئاسة المجلس الأعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية

السوفياتية «جوركين».

وقد حمل الساعي علاوة على ذلك خطاباً الى والدته ليونيد من «ميخائيل كالينين» جاء فيه :

«الى المحترمة يكاترينا اليكسينا . طبقاً لخبر القيادة استشهد ابنك ليونيد الكسندورفيتش جوليكوف من أجل الوطن استشهد الأبطال .

وقد منحته هيئة رئاسة المجلس الأعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية بتاريخ ٢ ابريل ١٩٤٤ أعلى درجة للجدارة وهي لقب بطل الاتحاد السوفياتي مقابل المأثرة البطولية التي قام بها ابنك في النضال ضد المحتلين الالمان في مؤخرة العدو.

ولاني أرسل اليك شهادة هيئة رئاسة المجلس الأعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية عن منح ابنك لقب بطل الاتحاد السوفياتي من أجل حفظها كذكرى لابنك البطل الذي لن ينسى شعبنا أبداً مأثرته .

«كالينين»

دفن ليونيد جوليكوف في قرية «أوستريا لوكا» حيث استشهد .

أما في قرية بولا حيث تقع مدرسة جديدة ذات طابقين، يوجد فريق للرواد باسم «ليونيد جوليكوف» . ويتذكر الأولاد في الاجتماعات بطلهم الفتى، ويسمعون الحكايات عن بطولاته الحربية، وتنتاب كلاً منهم الرغبة في أن يكون شجاعاً ومقداماً كما كان الراحل الصغير الفدائي «ليونيد جوليكوف» .

وكثيرون جداً في الوطن العربي، وفي لبنان على وجه الخصوص، أولئك الذين هم من طراز ليونيد جوليكوف . وكثيرون أيضاً في المقابل أولئك الذين هم برتبة الجنرال الالمانى الذي صرعه ليونيد، يتعاونون مع أعداء الشعب والوطن، ومع أعداء الانسانية جمعاء .

المرجع

. انظر كتاب «نافخ البوق الخالد». ترجمة مكارم الغمري . دار التقدم .
موسكو ١٩٧٤ . ص ١٠٣ - ١١٤ .

عبقرية الفتاة السوفياتية بين الواجب والبطولة

عندما كان لا بد من طائر يحلق، كان لا بد له من جناحين. وليس بجناح واحد فقط يستطيع التحليق. وهكذا هو الحال بالنسبة للمجتمع البشري، الذي يصعب عليه التقدم والتطور والسير في معارج الحضارة والرقى، بمعزل عن جناحيه ونصفيه، المتمثلين: بالرجل والمرأة.

إنها سنة الحياة؛ ولا حياة لمجتمع الانسان، إلا بهذين الجناحين. فالعصر عصر الفضاء واكتشاف الكواكب؛ وعصر الجاهلية ولّى الى غير رجعة، كما ولّت معه جريمة «وأد البنات» التي تعتبر من أكبر الجرائم التي عرفتھا البشرية في تاريخھا الطويل.

واذا كان للرجل تاريخ حافل بالمنجزات والاختراعات، فإن ذلك لم يكن مطلقاً بمعزل عن مشاركة المرأة ووجودها الملازم الدائم.

وكثيرات منهن صنعن المعجزات، ولعبن دوراً خارقاً في ميدان العمل والانتاج، كما في الميدان الأمني والسياسي، وحتى العسكري، خلال المعارك والحروب. وكانت الحرب العالمية الثانية المسرح الأكبر الذي برزت فوقه عبقرية النساء ويطولتهن، وخصوصاً على الصعيد السوفياتي؛ حيث اكتسبت إحداهن من المجد والشهرة ما يفوق الوصف والخيال، وهي الأنسة «أوجيني رودنيفا» التي أصبحت كبيرة ملاحات اللواء الجوي السوفياتي في الحرب العالمية الثانية.

فمن هي «أوجيني رودنيفا»؟ وكيف حصلت على وسام «النجمة الذهبية ذات الشريط الأحمر»؟.

كان قد مضى، في الواقع، على اكتساح روسيا من قبل هتلر أربعة أشهر فقط عندما أصبحت جيوشه على مقربة من موسكو تهددها بالاحتلال بين عشية وضحاها. و«سمولنسك» قد سقطت بأيدي الالمان. ومع تساقط الثلوج في أول الشتاء كان القتال يحتدم ويشد باتجاه لينينغراد وموسكو.

ولقد جاء الشتاء مبكراً في شهر تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٤١. وفي العاصمة الروسية كانت أخبار تقدم الالمان تبعث الفزع في النفوس؛ ولهذا فقد قوبل سقوط الثلج بالارتياح العظيم على أنه تعزيز لدفاع الروس وتأخير لتقدم الالمان السريع. أما الرياح الشرقية القاسية فلم تبعث الخوف في قلوب الروس هذه السنة، بل فرحوا بها لأنها مستحد من اندفاع الالمان باتجاه الشرق، وتعطي للروس الفرصة للمقاومة المجدية في أرض يعرفونها، وطقس اعتادوا عليه.

وكانت الأنسة «أوجيني رودنيفا» تغادر غرفة الدرس في جامعة موسكو لآخر مرة في حياتها. ففصل الشتاء الجديد قد خط لها حياة جديدة، وساعدتها الظروف لتلعب دوراً كبيراً في تحطيم قوات العدو الزاحفة.

كان عمرها عشرين عاماً. متوسطة القامة، وفي زرقة عينيها وميض يدل على الحزن الذي سببته الغارات النازية على بلدها، والتي نتج عنها مقتل الكثيرين من أهلها ورفاقها.

ولقد علمت مؤخراً بأن وزارة الحربية قد قررت تشكيل فيلق جوي من النساء، وأسندت قيادته الى أشهر سيدة طيارة في العالم وتدعى الرائد «مارينا يسكوفا». ولقد تقرر اشتراك هذا الفيلق بالعمليات فور انتهائه مدة تدريبه، واشترط أن يكون أعضاؤه من طالبات الجامعات في موسكو، أو من أعضاء نوادي الطيران، والسيدات طياري شركة الخطوط الجوية السوفياتية «ايروفلوت Aeroflot». ولم تتأخر «أوجيني» لحظة، فكانت أولى المتطوعات.

ولقد تمكن سلاح الطيران الالمانى في الأسابيع الأولى من العمليات، من القضاء على سلاح الطيران السوفياتي في منطقة الجبهة. وبذلك أصبحت

القوات الأرضية عرضة للتدمير. فكان لابد من متطوعين ل سلاح الطيران؛ ولضمانة العدد المطلوب كان لابد من تطويع النساء.

ووجدت «أوجيني رودنيفا» نفسها في فيلق جوي للقاذفات وفي مدرسة خاصة على شاطئ نهر «الفولكا». واضطرت الى جمع شعرها الذهبي الجميل في لباس الرأس الخاص بالطيارين؛ ثم بدأت تتدرب على قيادة الطائرات.

ولم يكن يصدق بأن تنقلب هذه الفتاة الى ملاح جوي خلال تسعين يوماً فقط. ولضيق الوقت لم يعط المدرسون الفرصة لأحد. ومن لا يتمكن من السير بسرعة في التدريب يوقف عن الطيران، ويحول الى وظائف أرضية بحثة.

وخلال شتاء (١٩٤١ - ١٩٤٢) القاسي، بذلت «أوجيني» مجهوداً جباراً في دراستها، ولوحظ عليها ولع شديد بمادة الملاحة الجوية، فأصبحت اختصاصية فيها. وبانتهاء الدورة، حصلت «أوجيني» على جناح الملاحين وهو عبارة عن جناحين يحملان قنبلة بينهما.

وصادف أثناء انتهاء الدورة ورود أخبار حسنة من الجبهة الوسطى. فقد تمكن السوفييات من وقف زحف الالمان قرب موسكو. وفي الجنوب تمكنوا من إعادتهم الى الخلف قليلاً نحو شبه جزيرة القرم، ولكن الجيوش الالمانية ما زالت لديها القوة اللازمة للزحف.

وفي شهر مايو عام ١٩٤٢ عيّنت «أوجيني» في اللواء الليلي القاذف الذي كان تحت قيادة الطائرة النقيب «أودوسي بيرشنسكايا». وكانت طائرات هذا اللواء من طراز «بوليكاروف P. O. 2»، وهي طائرات قديمة اخترعت عام ١٩٢٧ ذات مقعدين مكشوفين ليضعا الطيار، والملاح تحت رحمة الطقس السيء. وكانت سرعة هذه الطائرات القصوى لا تزيد عن (١٢٥ كلم/ ساعة)، لكن سرعة انهيارها القليلة كانت تسمح باستخدامها من المزارع والطرق في حالات الضرورة. كما كانت مدهونة باللون الكاكي، ولا يوجد

فيها أي سلاح دفاعي .

وقد تعيّنت الأنسة «نيناراسبويوفا» طياراً أول للملاحة «أوجيني» وكانت مهمتهما قذف مراكز العدو ليلاً .

وأخذت الفتاتان تطيران ليلة بعد ليلة فوق خطوط العدو قرب جزيرة القرم . وكانت المهمات متواصلة ولا تتوقف مهما كانت الظروف سيئة ، في البدر المنير والليالي الظلماء ، وحتى لو كانت الغيوم الدكناء تغطي الأهداف التي يجب ضربها .

كانت «أوجيني» تصل الى هذه الأهداف بدقة متناهية ، ثم تأمر زميلتها (نينار) بإفلات القنابل ؛ وكانت نتيجة الغارة تصل الى اللواء في اليوم التالي عن طريق رجال المقاومة الشعبية المعروفين «بالأنصار» (Partizan) الموجودين خلف خطوط العدو ، فينهال عليها الشاء والتقدير من جميع رفيقاتها في اللواء .

ولم يكد ينتهي صيف ١٩٤٢ حتى صدر أمر تعيينها كبيرة ملاحات اللواء وذلك بسبب الخبرة العظيمة التي اكتسبتها خلال مهماتها . ولم تكن «أوجيني» تعتمد فقط على النواحي العملية في مهماتها ، بل كان للمعلومات النظرية أهمية كبرى في نجاح هذه المهمات أيضاً ، حتى أنها لقبت فيما بعد بصاحبة النظريات .

وخلال الليالي الطويلة لشتاء عام ١٩٤٢ - ١٩٤٣ ، كانت الطائرات السوفياتية من طراز «بوليكاروف P. o. 2» تقوم بأكثر عدد من الغارات على الخطوط الالمانية ؛ وكانت الطائرة الواحدة تنفذ ما لا يقل عن خمس طلعات كل ليلة ابتداء من غروب الشمس وحتى شروقها . وبلغ مجموع غارات اللواء خلال تلك الليالي (١٩٤) غارة ، قذف فيها ما لا يقل عن (٥٥) ألف قنبلة .

ولقد تمكنت أوجيني خلال احدى غاراتها ليلاً من اصابة مركز قيادة الفيلد مارشال «بارون فون كليست» في منطقة «موزدوك» ، ووصلت أخبار هذه الغارة الناجحة الى مسامع الفريق «بتروف» قائد جبهة القوقاز الشمالية ، وذلك قبل أن تقوم «أوجيني» بكتابة تقريرها عن ذلك .

ولقد كان الالمان يسخرون كثيراً من هذه الطائرات، ولكنهم كانوا دوماً يحترمون ملاحيا ويلقبونهم بملائكة جهنم.

وحتى صيف عام ١٩٤٣، تابع اللواء غاراته دون أن يكون هناك حوادث مؤسفة. ولكن في أول آب/ أغسطس عام ١٩٤٣، كانت «أوجيني» تطير مع «كلوديا سيريبير باكوفا» في مهمة قذف الخطوط العدو قرب مدينة «كيفسكايا». وللأسف الشديد دخلت طائرة القائدة «كرواتوفا» - أحسن طيارة في اللواء - ضمن منطقة محمية بالمدفعية المضادة للطائرات، وحوصرت الطائرات بأنوار الكشافات، فأصيبت طائرة القائدة وهوت نحو الأرض، وانفجرت بقنابلها فوق مواقع العدو، وتبعها ثلاث طائرات أخرى لنفس السبب، وخسر اللواء ثماني فتيات في لحظة واحدة.

ولقد أثرت هذه الخسارة الفادحة تأثيراً كبيراً في نفس «أوجيني». فبالرغم من خبرتها العظيمة في العمليات الحربية، فإنها ما زالت صغيرة السن لا تتجاوز (٢٢) عاماً، ولا ترغب بالموت، لكنها كانت تخاف الحريق، وتفزع من الوقوع أسيرة بأيدي الالمان. ولهذه الأسباب فقط أخذت فكرة الانتحار تجد طريقها الى هذه الفتاة، وأخذت تتحدث كثيراً عن النقيب «كاستللو» الذي انتحر بطائرته الملتهبة حيث قادها باتجاه رتل من الدبابات وعربات الوقود الالمانية حتى اصطدمت به وانفجرت. وكانت تقول لرفيقاتها: «إذا صدف واشتعلت النار بطائرتي، فلسوف أوجهها نحو الخطوط العدو منتقية هدفاً جيداً لأدمره. وعندئذ لا يمكن للالمان أن يحرقوني».

ومنحت الحكومة السوفياتية الملاحه «أوجيني رودنيفا» لقب بطلة الاتحاد السوفياتي تقديراً لبطولتها والمهمات الناجحة التي نفذتها. وبذلك كانت «أوجيني» أول امرأة في القوات المسلحة تحصل على النجمة الذهبية ذات الشريط الأحمر.

وخلال شهر فبراير سنة ١٩٤٤، سافرت «أوجيني» الى موسكو بإجازة لمدة أسبوعين، ثم عادت وعيناها تبرقان بوميض الفرح والسرور، وهرعت نحو

غرفة قائد اللواء «أوجيني راتشكتفيتش» والتي كانت برتبة رائد. وبعد أن أدت لها التحية النظامية قالت: «لقد خالفت ملاحتك الأوامر فأحببت، انني مخطوبة».

- ومن هو خطيبك؟ قالت قائد اللواء.

- يدعى سلافيك. انه ضابط في سلاح المدرعات، وهو أحسن رجل في العالم.

- في منتصف ليلة التاسع من شهر ابريل عام ١٩٤٤، صعدت «أوجيني» الى طائرتها لتقوم بتنفيذ غارتها الـ (٦٤٦) في ضرب المطارات الالمانية قرب «بولكاناك» وهي تقول لقائدة الطائرة «بروكوفيفا» بأن الحرب ستنتهي حتماً عندما يصبح مجموع ما نفذته من غارات (٧٠٠) غارة.

دارت الطائرات فوق الهدف فلمحت قائدة الطائرة انفجارات قذائف مدافع «الأورليكون» المضادة للطائرات، وشاهدت الأنوار الكاشفة تفتش عن طائرتها؛ ولكن صوت الملاحه جاء واضحاً موجهاً إياها نحو مركز هذه الانفجارات. ولسوء الحظ فإن قذائف أحد المدافع الالمانية أصابت الطائرة اصابة حساسة فاشتعلت النيران.

وصاحت الملاحه «أوجيني»: انقضاض باتجاه المراكز الالمانية.

وكان ذلك آخر جملة سمعتها فتيات اللواء اللواتي كنّ فوق نفس المكان. وانقضت الطائرة «بوليكاروف P. o. 2» فوق الطائرات الالمانية الجائمة على أرض المطار. وأثناء الانقضاض كانت «أوجيني» تودّع رفيقاتها برمي رشاشات قصيرة من مدافع الطائرة؛ ثم انفجرت الطائرة لدى اصطدامها بمجموعة الطائرات العدوّة، وظهر في مكان الانفجار لهب أحمر اندفع عالياً نحو السماء يعلوه الدخان الأسود.

وبعد بضعة أيام استطاع الجيش السوفياتي احتلال مدينة «بولكاناك» والمطار المجاور لها. وأجريت التفتيشات اللازمة عن جثتي الفقيديتين بين

حطام الطائرة؛ وللأسف لم يعثر على شيء منها.

لقد دخلت «أوجيني رودنيفا» التاريخ السوفياتي من بابه الواسع، ضد النازية والفاشية، تماماً كما يدخل التاريخ اللبناني والعربي اليوم فتيات جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية ضد النازية الجديدة المتمثلة بالصهيونية والعنصرية على أرض جنوب لبنان العربي، بدءاً من المناضلة البطلة «يسار مروّ» مروراً بـ «سناء محيدلي» و«ابتسام حرب» ولن تكون آخرهن «لولا عبود» و«وفاء نور الدين».

فالعنصرية والفاشية واحدة في كل زمان ومكان. والحرية واحدة أيضاً. ولذلك يصحّ القول مع المتنبي في رثائه لوالدة سيف الدولة:

فلو كان النساء كمن فقدنا	لفضلت النساء على الرجال
فلا التأنيت باسم الشمس عيبٌ	ولا التذكيرُ فخرٌ للهِلالِ

المرجع

- ١ - «المجلة العسكرية» (قومية ثقافية تصدر شهرياً عن قيادة الجيش الأول في القطر العربي السوري). ترجمة الرائد الطيار ماجد حموي. العدد السابع. السنة الحادية عشرة. فبراير ١٩٦١. ص ٧٩ - ٨٢.

الفهرس

المخابرات السوفياتية	٧
المخابرات السوفياتية وأسرار نشونها وتطوره وتفوقها	١٥
المخابرات السوفياتية تتغلغل في نخاع الولايات المتحدة الأمريكية	٢٥
من هو الجاسوس الخطير الذي هز الولايات المتحدة؟	٢٥
المخابرات السوفياتية تتغلغل في نخاع بريطانيا	٣٧
المخابرات السوفياتية تتغلغل في نخاع اليابان	٤٩
سورج	٥٣
أوزاكي	٥٤
فوكولويتش	٥٥

٥٦.....	كلاوزن
٥٧.....	مياجي
٦٣.....	المخابرات السوفياتية تتغلغل في نخاع فرنسا
٧٣.....	المخابرات السوفياتية تتغلغل في نخاع ألمانيا
٨٣.....	المخابرات السوفياتية تتغلغل في نخاع كندا
٩٣.....	المخابرات السوفياتية تتغلغل في الحياض السويسري
١٠٣.....	المخابرات السوفياتية تتغلغل في استراليا وبلجيكا
١٠٤.....	ما هو الجاسوس السوفياتي في استراليا وبلجيكا؟
١١٠.....	فيكتور سوكولوف
١١٠.....	ليون جروشفوجيل
١١٠.....	كونستانين يفراموف
١١٥.....	النسر وتغلغل المخابرات السوفياتية في نخاع السويد (١)
١٢٣.....	النسر وتغلغل المخابرات السوفياتية في نخاع السويد (٢)
١٣٣.....	المخابرات السوفياتية تتغلغل في نخاع اسرائيل

- المخابرات السوفياتية تستولي على كنوز إسبانيا..... ١٤٧
- لينين ومؤامرة السفراء الثلاثة..... ١٥٥
- فتى الأبطال بين براءة الطفولة وكرامة الوطن..... ١٦٣
- عبقريّة الفتاة السوفياتية بين الواجب والبطولة..... ١٧٣



المركز الثقافي اللبناني